إيريك بويسنس

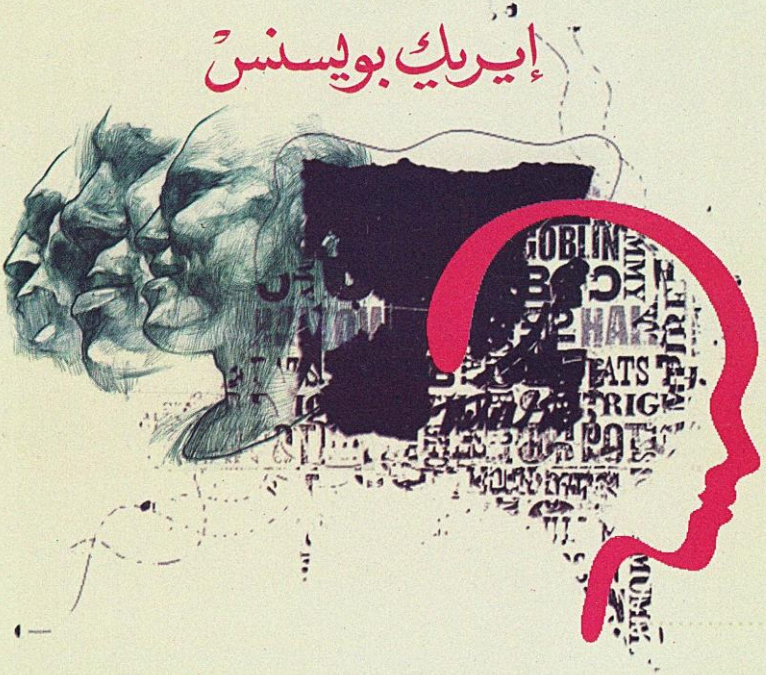

السيميولوجيا والتواصل

ترجمة وتقديم: جواد بنيس

الرؤية

السميولوجيا والتواصل

منتدى مكتبة الإسكندرية

إيريك بويسنس

السميولوجيا والتواصل

ترجمة وتقديم

جواد بنيس

للنشر والتوزيع

2017

الكتاب : **السميولوجيا والتواصل**
تأليف : **إيريك بويسنس**
ترجمة وتقديم : **جواد بنيس**
المدير المسؤول : **رضا عوض**
رؤية للنشر والتوزيع
القاهرة : 0122/3529628
8 ش البطل أحمد عبد العزيز – عابدين
تقاطع ش شريف مع رشدي
Email: Roueya@hotmail.com
فاكس : + (202) 25754123
هاتف : + (202) 23953150
الإخراج الداخلي : **حسين جبيل**
جمع وتنفيذ : **القسم الفني بالدار**
الطبعة الثانية : 2017
رقم الإيداع : 2016/25951
الترقيم الدولي : 978-977-499-228-5

جميع الحقوق محفوظة لـ رؤيـــة

تقديم الترجمة

تُعرَف السميولوجيا عادة بأنها علم العلامات. ونجد في هذا التعريف تحديدًا عامًا لعلم لم ينشأ إلا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ومع ذلك، يشير كثير من الدارسين إلى أن التفكير في العلامات قديم، بل إن اسم «السميولوجيا» نفسه كان يطلق عند الإغريق على هذا المبحث الطبي الذي يُعنى بالتعرف على الأمراض من خلال أعراضها وأماراتها[1]. ونجد عند أفلاطون في الحوار المسمى «كراتيل» نقاشًا حول العلامات، هل هي خاضعة للعرف والاصطلاح (nomos) أو للطبيعة (physis)[2]. كما أن الفلاسفة الرواقيين قدموا تصورًا عن العلامة مازال يحتفظ بقيمته إلى الوقت الحاضر، فقد نظروا إليها من خلال ثلاثة أبعاد هي:

(1) إلى وقتنا الحاضر، مازال لفظ سميولوجيا يحمل المدلول نفسه في علم الطب.

(2) انظر في هذا الموضوع بلومفيلد Le langage, 1930.

- التعبير أو الجانب المادي من العلامة.
- المحتوى أو ما يُعَبِّر عنه، وله شكل غير ملموس.
- المرجع أو الشيء الذي تحيل إليه العلامة، وله شكل ملموس[1].

أما السميولوجيا بمعناها الحديث، فقد ظهرت بصفتها علمًا مستقلاً في وقت واحد تقريبًا مع شارل ساندرس بيرس في أمريكا وفردناند دوسوسير في أوروبا. وهكذا بينما اكتفى اللغوي السويسري بالإعلان عن ميلاد العلم الجديد في محاضراته من خلال عشرين[2] إحالة اعتمد الفيلسوف الأمريكي «السميوطيقا» بصفتها إطارًا مرجعيًا يشمل كل أنواع الدراسات. يقول: «لم يكن

(1) انظر أمبرتو إيكو Le signe, Bruxelles, Labor, 1988, p. 36.

(2) جورج مونان Introduction à la sémiologie, Paris, Minuit, 1970, p. 11.

بإمكاني أبدًا دراسة أي شيء كيفما كان – الرياضيات والأخلاق والميتافيزيقا وعلم الجاذبية والديناميكية الحرارية والبصريات والكيمياء وعلم التشريح المقارن والفلك وعلم النفس والأصوات والاقتصاد وتاريخ العلم ولعب الورق والرجال والنسر والخمر وعلم المقاييس – إلا بصفته دراسة سميوطيقية»[1]. لكن بيرس – كما لاحظ ذلك تودوروف – لم يُخلف عملاً منسجمًا يلخص الخطوط العريضة لنظريته، فبقيت آراؤه مجهولة حتى وقت قريب[2].

وليس من اختصاص هذا التقديم عرض الفوارق بين التصورات البيرسية والسوسيرية، لكن من المفيد لفت الانتباه إلى أن المقاطع القليلة التي أشار فيها سوسير إلى أن السميولوجيا أحدثت حركية علمية في أوروبا أدت إلى تكاثر الأعمال ذات الطابع السميولوجي، فضلاً عن نشوء تيارات متباينة فيما يخص تحديد موضوع هذا العلم.

حين شبه سوسير اللغة بأنظمة العلامات الأخرى، ذكر الكتابة وأبجدية الصم البكم والطقوس الرمزية وأشكال التأدب والإشارات العسكرية (المحاضرات، ص33). ومَن يمعن النظر

---

(1) ديكرو وتودوروف Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris, Seuil, 1972, p. 113.

(2) من بين الباحثين الذين أولوا عناية خاصة إلى نظرية بيرس السيميوطيقية. تذكر:

Gérard Deledalle, Théorie et pratique du signe. Introduction à la sémiotique de Charles S. Peirce. Paris, Payot, 1979.

في هذه اللائحة سيلاحظ أن الكتابة وأبجدية الصم البكم وسيلتان تعويضيتان تحلان محل الكلام. وأن الطقوس الرمزية وأشكال التأدب أعراف اجتماعية، أما الإشارات العسكرية فهي وسيلة تواصلية لنقل إرساليات معينة. لكن في سياقات أخرى من المحاضرات، يذكر سوسير أيضًا الموضة والبانتوميم والإشارات البحرية العسكرية. وقد بيَّن جورج مونان أن المواضيع المشار إليها بصفتها موضوعًا للسميولوجيا تتضمن في ذاتها بوادر القطيعة داخل هذا العلم الناشئ، حيث سيتأسس اتجاهان مختلفان مع أنهما يعلنان صراحة ارتباطهما بالتعاليم السوسيرية، يتعلق الأمر أولاً بسميولوجيا التواصل وثانيًا بسميولوجيا الدلالة. ولإدراك أوجه الاختلاف بينهما، سننطلق من مفهومي المؤشر (indice) والإشارة (signal).

وفي هذا الصدد، نجد عند الباحث السميولوجي لوي بربيتو تقسيمًا ثلاثيًا للمؤشرات (*):

- **المؤشرات التلقائية**: هي الأحداث أو الوقائع أو الأشياء التي تمدنا بمعلومات دون أن تكون أنتجت من أجل هذه الغاية، فلون السماء يُعد مؤشرًا تلقائيًا لأنه ينبئ بالحالة التي سيكون عليها الجو. كما أن اللكنة الخاصة التي يتكلم بها شخص ما تعتبر مؤشرًا تلقائيًا يدل على أنه أجنبي. في كلتا الحالتين لا

(*) من أجل فهم أفضل لمدلولات المصطلحات المستعملة. يستحسن الرجوع إلى ثبت المصطلحات الموجود في نهاية هذا الكتاب.

يتعلق الأمر بإرسالية معينة تتضمن الرغبة في إيصال مضمون محدد.

- **المؤشرات التلقائية المفتعلة**: هي مؤشرات تظهر للمتلقي وكأنها تلقائية لكنها مفتعلة، مثل مَن يحاكي لكنة أجنبية بغية الظهور بمظهر الأجنبي.
- **المؤشرات القصدية**: تتكون من الأحداث أو الوقائع التي تمدنا بمعلومات أنتجت قصدًا لإيصال مضمون معين، ولا تتحقق لها هذه الغاية إلا عندما يدرك المتلقي نية المرسل في أن يبلغه بشيء ما. أما المثال الذي يقدمه بربيتو هنا فهو علامات المرور التي توجهها السلطات المختصة إلى مستعملي الطرق لتنظيم السير[1].

هكذا تعتبر المؤشرات القصدية إشارات (signaux) يتحقق بواسطتها التواصل، مما يعني أن استعمالها هو ما يميز التواصل الحقيقي عن غيره. وبالتالي، فدراسة الإشارات بأنواعها تُكون أساس وموضوع سميولوجيا التواصل التي أرسى مبادئها إيريك بويسنس[2] منذ سنة 1943 عندما نشر كتاب اللغات والخطاب،

---

(1) لوي بربيتو Etudes de linguistique et de sémiologie générales, Genève, Droz, 1975, pp. 127-128.

(2) ولد بويسنس بمدينة غان ببلجيكا سنة 1900 حصل على الدكتوراه في الأدب المقارن سنة 1923، وأصبح أستاذًا للتعليم العالي بالجامعة الحرة لبروكسيل، حيث درَّس النحو المقارن للغات الهندوأوروبية، وأنشأ درسًا خاصًا بسوسيولوجيا اللغة. وفي سنة 1970 انتُخب عضوًا في =

وحاول فيه تأسيس السميولوجيا «باعتبارها العلم الذي يدرس الإجراءات التي نستعملها بغرض إيصال حالات وعينا إلى الآخرين التي بواسطتها نُؤول الإرساليات الموجهة إلينا» (ص5).

إن الإجراءات المذكورة هنا هي الإشارات بصفتها وسائل نلجأ إليها بقصد التأثير في الآخر، مما يقتضي سننًا مشتركًا بين المرسل والمتلقي. قد تكون الإشارات لغوية مثل استعمال الكلام أو غير لغوية مثل علامات المرور والملصقات الإشهارية والإشارات اليدوية التي تتحقق فيها القصدية.

خلافًا لهذا التوجه الأول، عمل رولان بارت على توسيع دائرة البحث السميولوجي ليشمل مواضيع لا تدخل بالضرورة في نطاق التواصل. وقد ظهر ذلك جليًا منذ صدور كتابه المسمى أساطير[1] حيث حلل بعض أساطير العالم البورجوازي مثل الأكل والشراب ورياضة المصارعة... وانتهى إلى أنها إرساليات لا تخلو من دلالة بالنسبة للمجتمع الذي تُستعمل فيه. ولذلك سُمي الاتجاه الذي دشنه بارت بسميولوجيا الدلالة. لكن ما يلفت الانتباه هو أنه اشتغل أيضًا على مواضيع لها صلة بالتواصل مثلما هو الأمر في مقال

=الأكاديمية الملكية للعلوم والآداب والفنون الجميلة ببلجيكا. نشر دراسات عديدة في اللسانيات والسميولوجيا، إضافة إلى مجموعة من الكتب أهمها:

Les langages et le discourse 1943, Vérité et langue. Langue et pensée 1960, La communication et l'articulation linguistique 1970, Les catégories grammaticales du Français 1975, Epistémologie de la phonématique 1980.

(1) رولان بارت Mythologies, Paris, Seuil, 1957.

«بلاغة صورة» الذي قدم فيه تحليلاً لصورة إشهارية في علاقتها بالنص المرافق لها.

لقد لخص بربيتو بذكاء الفرق بين الاتجاهين المشار إليهما أعلاه عندما اعتبر اللسانيات وسميولوجيا التواصل وسميولوجيا الدلالة ثلاثة علوم يتداخل موضوع كل واحد منها مع الآخر بصورة متتابعة، تدرس سميولوجيا التواصل كل الظواهر التي تدرسها اللسانيات أي العلامات اللغوية مع إضافة العلامات غير اللغوية. وتدرس سميولوجيا الدلالة كل الظواهر التي تدرسها سميولوجيا التواصل أي الإشارات مع إضافة المؤشرات العرقية التي ليست لها صفة الإشارات[1]. وإذا أردنا التعبير عن هذا التداخل بواسطة رسم ذي ثلاث دوائر. وضعنا اللسانيات في الدائرة الأولى وسميولوجيا التواصل في الدائرة الثانية المحيطة بالأولى ثم سميولوجيا الدلالة في الدائرة الثالثة المحيطة بالكل.

لعل الغاية الأساسية من استعراض المعطيات السالفة تتمثل في تحديد الموقع الذي يحتله بويسنس ضمن الأبحاث السميولوجية المعاصرة. ولن نجانب الصواب إذا قلنا بأن عمله الأول الصادر سنة 1943 شكل أول تطوير حقيقي للنظرية السميولوجية بعد سوسير. وبعد حوالي ثلاثة عقود من هذا التاريخ، أعاد المؤلف النظر في كتابه، فأضاف إليه وحذف منه ثم أخرجه في طبعة منقحة تحمل عنوان: «التواصل والتمفصل اللغوي»[*] (1970).

---

(1) لوي بربيتو، مرجع مذكور، ص130.

(*) العنوان الأصلي هو La communication et l'articulation linguistique.

يتضمن الكتاب قسمين، أحدهما مخصص للسميولوجيا والآخر للسانيات. وقد أقدمنا على ترجمة القسم الأول لما له من قيمة معرفية وتاريخية. وسيلاحظ القارئ أن بعض تحليلات المؤلف ليست دائمًا سهلة المنال، وأن إدراكها يتطلب إعمال الفكر وإعادة النظر بسبب أصالة وعمق الأطروحات المقترحة. ولعل هذا هو ما سوَّغ له نحت اصطلاحات خاصة مثل acte sémique و sème و sémie التي ترجمناها على التوالي بفعل سيميائي وسيمياء وسيميائية. ونشير إلى أن علماء الدلالة يوظفون المصطلح الثاني بمعنى لا علاقة له بالاستعمال الوارد عند المؤلف.

وحتى نقرِّب مضامين الكتاب إلى القارئ، سنقوم بعرض مقتضب لأهم القضايا التي يطرحها[1].

تقوم نظرية بويسنس في مجال السميولوجيا على فصل قاطع بين مفهومي المؤشر والإشارة، وهو يتبع في ذلك رودولف كلينبول الذي سبق له أن ميز بين الأحداث القابلة للتأويل والأفعال المعبرة عن رغبة حقيقية في التواصل. لكن بويسنس يذهب بعيدًا في محاولة تقديم شرح علمي لهذين المفهومين. حيث يُقصد بالتأويل عنده الرجوع إلى أصل وسبب ما نلاحظه؛ فنُتف الجليد على النافذة تعني وجود الصقيع في الخارج. يقيم الملاحظ إذًا علاقة بين النتيجة الظاهرة (نتف الجليد) وسببها (الصقيع). لكن عندما يهز مُحاوري

(1) خصص ج. مونان عرضًا نقديًا قيمًا لهذا الكتاب. انظر ... Introd ص 235.

كتفيه فإنه يلجأ إلى وسيلة عرفية ليخبرني بعدم علمه بأمر معين. هكذا يتحدد الفرق بين مفهومي المؤشر والإشارة على أساس أن الأول نتيجة يكمن وراءها سبب، في حين أن الثاني وسيلة تترجم نية مَن استعملها؛ فالقصدية هي نقطة الارتكاز لتمييز الفعل التواصلي عن الحدث «الطبيعي».

ويُسَمِّي المؤلف كل فعل تواصلي فعلاً سيميائيًا؛ كما يوظف في الإطار نفسه مفهومين مركزيين آخرين هما السيمياء والسيميائية. يُقصد بالسيمياء كل إجراء عرفي يمكن تحققه الملموس (المسمى بالفعل السيميائي) بالتواصل. السيمياء إذًا هي الجزء الوظيفي من الفعل السيميائي، وتتكون من العناصر الوظيفية للسلوك المحسوس. تبعًا لذلك، فإن «موضوع السميولوجيا ليس هو بالضبط الفعل السيميائي في واقعه الملموس، بل فقط مجموع عناصره الوظيفية. وعندما يكون السميولوجي شاهدًا على فعل سيميائي، يلزمه أن يستخرج منه السيمياء». ويمكن تشبيه ثنائية الفعل السيميائي والسيمياء بثنائية الكلام والخطاب عند اللساني الذي يلزمه دراسة تجليات الكلام ليستخرج منها الجانب الوظيفي أي الخطاب.

ويتخلى بويسنس عن استعمال مصطلح لغة لتسمية أشكال التواصل اللغوية وغير اللغوية، فيتبنى لفظ سيميائية للإشارة إلى اللغات وعلامات المرور والعلامات الغرافية (الخطية) المستعملة في العلوم الدقيقة والمنطق. والحركات المستعملة عند الرهبان

اللاترابيين في الدير أو عند الهنود الحمر... ويعتبر كل عنصر من هذه العناصر سيميائية متكونة من مجموعة من السيمياءات المتعارضة. كما يقترح تصنيفًا لمختلف السيميائيات من وجهات نظر متعددة.

- أولاً، يمكن تصنيف السيميائيات من وجهة النظر **الحواسية**، أي بالاعتماد على الحواس المستعملة للتواصل. ذلك أن السيمياءات الشمية والذوقية قليلة الأهمية مقارنة بالسيمياءات السمعية والبصرية واللمسية: تكمن قيمة السيمياءات البصرية في مقاومة الزمن، فالكتابة مثلاً لا تندثر بعد وفاة صاحبها، ويمكن استعمالها للتواصل مع مخاطب سيعيش في عصر لاحق. يمكن اللجوء أيضًا إلى السيمياءات السمعية للتواصل عبر مسافات مكانية وزمانية متباعدة (الهاتف في الحالة الأولى والتسجيل على شريط مغناطيسي في الحالة الثانية).

- ثانيًا، يؤدي التصنيف المرتكز على وجهة النظر **الدلالية** إلى التمييز بين السيميائيات المباشرة والتعويضية: يُعتبر الخطاب سيميائية مباشرة، في حين أن الكتابة سيميائية تعويضية لأن الحروف هنا تعوّض الفونيمات وتحل محلها، وهي، بالتالي، المَعبر اللازم للوصول إلى الدلالة. والشيء نفسه صحيح فيما يخص كتابة «براي» التي هي سيميائية تعويضية من الدرجة الثانية لأنها «تحول السيميائية البصرية للكتابة إلى سيميائية لمسية».

- ثالثًا، من وجهة النظر **الاقتصادية**، تلبي السيميائيات حاجات تواصلية متنوعة باستعمال وسائل محدودة؛ إذ من الممكن تكوين عدد كبير من السيمياءات بواسطة عدد محدود من العلامات: ففي الحساب يؤدي استعمال عشرة أعداد فقط إلى تمثيل الأعداد بصورة غير محدودة، وتوظف إشارات الطريق أربعة أشكال وخمسة ألوان لإيصال عدد مهم من الإرساليات المنظمة لقانون السير. ومع ذلك، فإن السيميائية الأكثر اقتصادًا هي اللغة.

- رابعًا، من وجهة النظر **التشريعية**، يوجد تفاوت بين السيميائيات من حيث درجة خضوعها للسلطة: فإذا كانت رنات البوق لا يعتريها أي تغير، مثلها في ذلك مثل إشارات الطريق ذات القوانين الثابتة، فإن اللغة لا تعرف أية سلطة عليا؛ ولذلك تمر بحالات التطور والتقلب. إنها ليست ملكًا لأحد، في حين أن السيميائيات الأخرى تستعملها فئات اجتماعية معينة مما يسهل وضع القوانين واحترامها.

- خامسًا، من وجهة النظر **السوسيولوجية**، تختص كل فئة اجتماعية بسيميائية معينة: يستعمل اللاترابيون الحركات ويوظف الرياضيون العلامات الرياضية، وليس نادرًا الاعتماد على أكثر من سيميائيتين للتواصل مثلما هو الحال بالنسبة لإشارات الطريق التي توظف الأشكال الهندسية (مثلثات، دوائر) متجاورة مع العلامات المكتوبة.

ومن جهة أخرى، يناقش بويسنس البعد الدلالي للأفعال التواصلية فينظر إلى الدلالة على أنها متكونة من عنصرين هما الصيغة والمادة. يُقصد بالصيغة نوع العلاقة الاجتماعية التي يقيمها المرسل مع المتلقي، ذلك أن استعمال الجملة نفسها بصيغ متعددة (الإثبات، التساؤل، الأمر، التمني) يؤدي في كل مرة إلى إقامة علاقة اجتماعية خاصة. أما المادة عنده فهي ما يشكل موضوع الإثبات أو التساؤل أو الأمر أو التمني. ورغم أن الدلالة ذات طابع نفسي. فهي عرفية من حيث كونها «تتحقق باكتشاف ما هو مشترك بين حالات وعي الأفراد الذين يتواصلون» وتقصي «إمكانية إيصال ما هو خاص بفردٍ ما». وفي السياق نفسه، يبدي المؤلف ملاحظات دقيقة حول علاقة المعرفة بالدلالة فينتقد اللغويين الألمان. وفي مقدمتهم فون همبولدت – الذين يعتقدون أن اللغة تحدد طريقة التفكير، منتهيًا إلى أن تمفصل الفكر غير خاضع لتمفصل اللغة.

إن القضايا التي يطرحها مؤلف هذا الكتاب أعمق بكثير من الملاحظات السريعة المسجلة أعلاه. وحتى نفهم الدور الرائد الذي اضطلع به بويسنس من أجل تأسيس وتطوير السميولوجيا. علينا أن نعلم بأنه صاحب أول مرجع سميولوجي حقيقي في القرن العشرين. أما الصدى الذي خلفته آراؤه، فيمكن تلمسه بوضوح في كتابي لوي بربيتو وأمبرتو إيكو وجان مارتيني وجورج مونان، على

سبيل المثال لا الحصر. وأملنا أنّ تؤدي هذه الترجمة دورها وتساهم في ترسيخ أصول البحث السميولوجي[1].

المترجم

(1) منذ الثمانينيات. بدأت تظهر في العالم العربي بعض الأبحاث السميولوجية. انظر على سبيل المثال: سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، مدخل إلى السيميوطيقا، دار إلياس، 1986؛ حنون مبارك، دروس في السيميائيات، 1987؛ أنور المرتجي، سيميائية النص الأدبي، أفريقيا – الشرق، 1987.

مقدمة

في القرن الماضي أثبت الرياضيون أن الهندسة الإقليدية ليست سوى حالة خاصة من حالات الهندسة العامة؛ وغير بعيد عنا أدخل الفيزيائيون الفيزياء النيوتونية في الفيزياء العامة. وفي اللسانيات، نادى سوسير بالتوسيع نفسه: «يمكن أن نتصور علمًا يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية؛ سيشكل جزءًا من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي جزءًا من علم النفس العام: سنسميه السميولوجيا... ومهمة اللساني هي تحديد ما يجعل من اللسان نسقًا خاصًا ضمن مجموعة الظواهر اللسانية»[1].

يتأسس كل علم على المقارنة: يجمع كل علم الظواهر المتشابهة ويعارضها بتلك التي تختلف عنها. لتعريف الكلب، لا يكفي القول بأنه من الثدييات، لاحِمٌ يمشي على الأصابع وله منها أربعة في القوائم الخلفية وخمسة في القوائم الأمامية؛ ينبغي كذلك معارضة

(1) Cours, p. 34.

مجموعة الكلاب بمجموعة الذئاب والثعالب إلخ... إذا لم نقارن اللغة بالأنساق التواصلية الأخرى، فإننا لا نستطيع مقارنتها إلا بالفكر، وسيصبح من الصعب جدًا في هذه الحالة تمييز كل منهما: كان الإغريق القدماء يطلقون الاسم «لوغوس» نفسه على الخطاب والفكر؛ وقد اختلط المنطق باللسانيات مدة طويلة. غير أننا إذا نظرنا إلى الخطاب بصفته وسيلة تواصلية مثل الوسائل الأخرى، سيصبح من السهل تفريق المجال اللساني عن المجال السيكولوجي.

يمكن تعريف السميولوجيا بأنها دراسة الإجراءات التواصلية، أي الوسائل المستعملة للتأثير في الآخر، والمنظور إليها بهذه الصفة من طرف مَن نريد التأثير فيه. عندما نطبق هذا التعريف على اللسانيات، فإنه يبرز وجهة النظر السوسيولوجية التي نتبناها هنا: لا يتعلق الأمر بدراسة الكلام بصفته تجليًا مباشرًا للمتكلم، أي في جانبه الفردي، بل بصفته ظاهرة اجتماعية. لنتأمل الآلية اللغوية على وجه الخصوص: من بعد ما نعلم الكلام للأطفال،

ينبغي أن نعلمهم السكوت: لشدة ارتباط الكلام بالفكر، هم ينزعون إلى التكلم كلما فكروا. ويفعل العديد من الراشدين الشيء نفسه: فمن المؤكد أن نجد رجلاً يتكلم وحده مثلما يمكن أن تجد «لاترابيًّا»[1] يؤدي وحده، داخل الدير، الحركات التي تعلمها. إن أحداثًا من هذا القبيل لا تهم السميولوجيا.

أشياء كثيرة يمكن تحويلها عن وجهتها الأولية: الحذاء الذي هو مخصص لحماية القدم يمكن أن يصلح للضرب، والدين الذي هو مجموعة من قواعد المعاملة يمكن أن يتحول إلى «أفيون الشعب». تحتم علينا وجهة النظر السميولوجية العودة إلى الوظيفة الأساسية للغات: التأثير في الآخر. ليست التجليات اللسانية الأولى للرضيع محاولات للتعبير، بل هي محاولات للتأثير في الوسط الاجتماعي.

من الممكن التأثير في الآخر دون إرادة ذلك: فطريقة تكلم صديق لنا يمكن أن توحي لنا بأنه مفهوم، ونطق شخص مجهول يمكن أن يكشف عن أنه أجنبي، وسلوك المصروع يثير شفقتنا. يتعلق الأمر هنا بمؤشرات، نتعرف عليها ونحددها ونُؤولها دون أن يكون ثمة تواصل. والسميولوجي لا يدرس هذه الحالات، بل يقتصر على الوسائل العرفية. يمكن أن يكون العرف ضمنيًا كالحالة التي يحاول فيها الطفل أن يتكلم مثل أبويه، ويمكنه أن يكون صريحًا عندما تضع لجنة دولية اصطلاحات علمية.

---

(1) يطلق هذا اللفظ الذي يقابل مصطلح trappiste في الفرنسية على الرهبان المنتمين لحركة اللاترابيين المعروفة باستعمالها الخاص للحركات بصفتها وسيلة تواصلية (المترجم).

إن تاريخ السميولوجيا ليس قديمًا. نجد قبل سوسير ملاحظات مهمة حول العلامات والرموز ولاسيما عند المناطقة. ولكن من اللازم أن نذكر على الخصوص كتاب "sprache ohne worte" لرودلف كلينبول[1] حيث يميز المؤلف بوضوح بين الأفعال التي تُعزى إلى إرادة حقيقية في التواصل والأحداث القابلة للتأويل، إضافة إلى أنه يقدم مجموعة مهمة من الظواهر تهم السميولوجيا.

بدءًا من سوسير حتى الحرب العالمية الثانية، لا نجد إلا دراسة سميولوجية واحدة تتجاوز الابتذال الذي نجده في كل كتاب حول اللغة هي مؤلف «التوازي المنطقي النحوي» لشارل سيريس[2]، وفيه يقارن المؤلف بدقة بين الرموز الرياضية والإجراءات اللغوية مستخلصًا نتائج مهمة بخصوص روابط الفكر بالخطاب.

وقد شهدت السميولوجيا انطلاقتها منذ الحرب العالمية الأخيرة، فتأسست مراكز لدراسة التواصل في أماكن مختلفة. ولمركز باريس مجلة «التواصل» الخاصة به، حيث يضم العدد الرابع[3] دراسة تركيبية أنجزها رولان بارت عنوانها «عناصر السميولوجيا» (ص 91-135) وكما يقول صاحب المقال «نجد اليوم طلبًا على السميولوجيا، سببه ليس هوى بعض الباحثين، بل تاريخ العالم المعاصر نفسه» (ص 1). ينبغي أن نلاحظ من جهة أخرى أن هذه

(1) Leipzig, W. Friedrich, 1888.

(2) Paris, Alcan, 1964.

(3) Paris, Editions du Seuil, 1964.

المدرسة الفرنسية تميل إلى تصور آخر للسميولوجيا: «فاللسانيات ليست جزءًا، ولو كان ذا امتياز. من علم العلامات العام، بل السميولوجيا هي التي تشكل جزءًا من اللسانيات» (ص 2). بهذا التصور، تمتلك السميولوجيا مجالاً ظل حتى الوقت الحاضر مخصصًا للأسلوبية والتفسير الأدبي.

إضافة إلى هذه الكتب التي تعالج بكيفية واضحة وسائل التواصل الاتفاقية[1] ينبغي أن نذكر كتب المناطقة ومُنظري الإعلام. لكن اهتماماتهم منطقية أكثر منها سوسيولوجية: فهم لا يميزون عمومًا بين تأويل فعل تواصلي حقيقي وتأويل مؤشر.

لا تضم هذه اللائحة البيبليوغرافية أية دراسة عن تطور وسائل التواصل غير اللغوية: فمن الصعب تأسيس سميولوجيا تاريخية نظرًا لغياب المعطيات خارج المجال اللغوي. ووجهة النظر التي نتبناها هنا هي ما كان سوسير ينعتها بالسانكرونية؛ فبتبنيه لهذا اللفظ كان سوسير يفكر في كل ما هو موجود في الزمن نفسه خلال تاريخ معين، حيث تَحدّث عن حالة اللسان في مرحلة يكون فيها مجموع التغيرات الحاصلة ضعيفًا[2]. لم يعرف هذا التصور نجاحًا كبيرًا؛ لأن المرحلة نفسها تضم متكلمين شبابًا وشيوخًا يمثلون حالات مختلفة من اللسان. بعض اللسانيين يفضلون الحديث عن لسانيات وصفية، لكن الغموض يكتنف هذا اللفظ لأن مؤرخ اللغة يقوم بالوصف كذلك: فهو يصف التطور. سيكون مصطلح

(1) انظر لائحة هذه الكتب في نهاية المقدمة (المترجم).

(2) Cours. p. 146.

السانكرونية ملائمًا جدًا إذا فكرنا بأنه كلما تحدث المتكلم أحدث انتقاء من بين الإجراءات الموجودة آنيًا في ذهنه، وهي إجراءات يفترض وجودها آنيًا كذلك في ذهن من يستمع إليه. هذا التوافق الاجتماعي هو ما نسميه تحديدًا بالعرف.

لقد توصل سوسير إلى تصور الحاجة إلى لسانيات سانكرونية بدراسة المصوتات البدائية للغة الهندوأوروبية من خلال اللغات التاريخية. ولا يمكن أن نؤرخ للظواهر اللسانية تأريخًا مناسبًا إلا بعد دراسة طبيعة هذه الظواهر. وهو ما تضطلع به اللسانيات السانكرونية. وكما كتب ذلك كلود بريمون: «لم يكن داروين ممكنًا إلا بعد لينيه(*)»[1].

1 - الكتب المشار إليها في الهامش رقم 6 هي:

- J. Vendryes, Langage oral et langage par gestes, Journal de psychologie normale et pathologie, 1950, pp. 7-33.
- E. Buyssens, Le langage par gestes chez les moines, Revue de l'Institue de Sociologie, Bruxelles, 1956, 9p.
- R. Barthes, Mythologie, Paris; Editions du Seuil, 1957, 270p.

(*) لينيه عالم سويدي عاش في القرن الثامن عشر، واهتم بتصنيف النبات والحيوان (المترجم).

(1) Le message narratif. p. 5, Communication, 4, 1964.

- Cl. Lévy-Strauss, La structure des mythes, Anthropologie culturelle, Paris, 1958, pp. 227-255.
- G. Mounin, Les systèmes de communication non linguistiques et leur place dans lavie du xxe siècle, B.S.L. 1959, pp. 176-200.
- G, Mounin, Définitions récentes du language. Diogène, 1960, pp. 99-112.
- R, Barthes, Le bleu est à la mode cette année: note sur la recherché des unités significantes dans le vêtement de mode, Revue française de sociologie, 1960, I, pp. 147-162.
- R. Barthes, Pour une psycho-sociologie de l'alimentation contemporaine, Annales, n° 5, 1961, pp. 877-986.
- R, Barthes, Le message photographique, Communications, I, 1961, pp. 127-138.

الفصل الأول

1

الفعل السيميائي

1- تعريف:

أن نعيش في المجتمع معناه، على الأقل بالنسبة إلينا نحن البشر، اللجوء إلى أشباهنا بغية تحسين حياتنا الفردية. هذا التحسين يكتسي أشكالاً متعددة ويمكن أن يكون صعب الإدراك. ولا يتعلق الأمر فقط بخدمات يؤديها الآخرون لنا، فمجرد المرافقة يمكن أن تكون مصدرًا للرضى والطمأنينة. عندما نرى شيئًا جميلاً، نحب أن يكون بجوارنا أحد لاقتسام إحساسنا ونشعر بأنه يشارك في فرحتنا. قد يكون ذلك مجرد وهم، ولكن لا يهم.

ولكسب مشاركة الآخرين، ينبغي طبعًا أن نُعَرّف بما يجري في داخلنا؛ لِنَقُل في حالة وعينا. لكن حالة وعينا لا يمكن أن يدركها أي فرد آخر وليست هناك أية وسيلة لنقلها إليه. غير أن السلوك الإنساني يسمح لنا، بواسطة الاستدلال أي داخـــل وعينا الذاتي،

بإعادة تكوين جزء مما يدور في وعي شخص آخر. مثلاً، إذا رأيت طفلاً ينتصب على أصابع رجليه ويمد يده نحو شيء ليس في متناوله. أتذكر بأنني قمت بالفعل نفسه: وبما أنني كنت أقوم به لأخذ الشيء، أستنتج بأن الطفل له الرغبة نفسها. عندما يحرك الكلب ذيله وعندما يموء القط نقول بأنهما فرحان لأننا نلاحظ بأنهما يتصرفان هكذا كلما أرضيناها.

وقد نتج عن هذا التأويل للظواهر فكرة وجود نقلة طبيعية؛ فأغلب تصرفات الإنسان والحيوان على السواء مرتبطة فعلاً بحالات نفسية، وذلك بكيفية طبيعية ومنتظمة إلى درجة أن الحدث المحسوس – حركة، إيمائية، موقف – يسمح لمن يعاينه بأن يرى فيه تجليًا لحالة نفسية. غير أن هذه اللغة الطبيعية لا يمكن تشبيهها بالكلام لأنها تفتقد لخاصية أساسية: فالطفل والكلب والقط الذين وصفناهم آنفًا لا يفكرون البتة في إظهار حالة وعيهم، ولا يريدون

أن يُؤول الناظر سلوكهم لتنتج عن ذلك مشاركة ما: إنهم لا يتواصلون. ما يُزعم أنه لغة طبيعية هو إمكانية لتحديد الحالة النفسية لفرد آخر من خلال تجليات هذه الحالة: فهو مؤشر.

ما نسميه هنا بالفهم أو التأويل هو الرجوع إلى أصل وسبب ما نلاحظه. ومنهج من هذا القبيل هو أساس التشخيص الطبي، ويسمى في هذه الحالة السميولوجيا. هكذا، نقوم بتأويل عدد من الظواهر: فنُتف الثلج العالقة بالزجاج تعني وجود الصقيع في الخارج، وبعض النباتات تبشر بوجود طبقة مائية تحت الأرض، وحالة السماء أو البحر تنذر البحار بقرب العاصفة. عندما يهرع الناس صوب سيارة متوقفة، نفهم بأن حادثة وقعت. هناك لغة طبيعية، فالظواهر تكلمنا لأن لها دلالة. لكن عندما نقول هذا نستعمل استعارة خطيرة: فالظواهر لا تتواصل معنا. فالرجل الذي يرتعد خوفًا لا يريد أن يظهر لنا خوفه: قد يرتعد ولو كان وحده.

على النقيض من ذلك، لنأخذ سلوك الكلب الذي يرى شخصًا مارًا، فيتجه نحوه ويسبقه في اتجاه باب يخدشه رافعًا عينيه إليه آملاً بطبيعة الحال أن يفتح له الباب. يستعمل الكلب فعلاً محسوسًا (خدش الباب، على وجه الخصوص) مرتبطًا بحالة وعي (رغبة فتح الباب) لكي يقوم الشخص الذي يدرك هذا الفعل بالربط نفسه؛ إنه بواسطة هذا التعاون يتحقق حدث التواصل بالمعنى الحقيقي. وهناك اختلاف جوهري بين سلوك الكلب وسلوك الطفل المذكور أعلاه: فالكلب لا يسعى إلى فتح الباب بنفسه، وحركته ليست سوى تظاهر بحركة تستهدف فتح الباب وتكرارها

من أجل غاية أخرى؛ والهدف في هذه المرة اجتماعي: يريد الكلب إظهار رغبته ويسعى إلى التواصل. إن التعبير عن رغبته إرادي، فهو وسيلة حقيقية لخدمة إرادة ما.

إن الحركات التي تصدر عنا تستدعي التعليق التالي: بعض حركاتنا يرافق كلامنا، وفي حالات كثيرة يكون من المستحيل الاستغناء عنها، ونحن غير واعين بذلك دائمًا. تخبر هذه الحركات مُحاورنا بسلوكنا النفسي، ومن البديهي عدم الخلط بينها وبين تلك التي نستعملها عوضًا عن الكلام. إذا أشرت من بعيد إلى صديقي بالمجيء، فإن حركتي وسيلة واعية من أجل التواصل، في حين أن تجميع القبضة عند الخطيب السياسي هو رد فعل قد لا يكون واعيًا به. إن الشحوب الذي يعتري وجه الطالب، وقد أحرجه سؤال الأستاذ، ليس وسيلة يستعملها الأول للتأثير في الثاني، ولكن الأستاذ يعتبر ذلك مؤشرًا.

عندما نقول بأننا نفهم دلالة القبضة المشدودة أو الشحوب، فمعنى ذلك أننا نتصور سبب هذا السلوك. ولكن عندما نقول بأننا نفهم دلالة جملة «تعال هنا» أو دلالة عمود إشاري، فمعنى ذلك أننا نتصور نية مَن لجأ إلى هذا الإجراء. في الحالة الأولى نقوم بتأويل نتيجة، وفي الحالة الثانية نؤول وسيلة. وهنا يكمن المقياس الذي يسمح بتمييز الحدث السميولوجي عن المؤشرات.

يشكل كل فعل تواصلي علاقة اجتماعية. ونلاحظ ذلك أفضل بواسطة خاصية نسميها هنا الصيغة (modalité)، وهي متطورة بشكل كبير في اللغات: تكون كل جملة إثباتية أو استفهامية أو أمرية

أو للتمني: نلاحظ هذا في التنغيم واختيار الكلمات ورتبتها. نتكلم لإخبار المستمع أو مساءلته أو لإعطائه أمرًا أو لإشهاده على تَمَنٍّ ما. لا تعرف علامات الطريق إلا صيغتين هما الأمر والإخبار؛ يتم الأمر بواسطة اللوحات الدائرية (ذات اللون الأزرق بالنسبة للإلزام والأبيض المحفوف بالأحمر بالنسبة للمنع). ويتم الإخبار بواسطة اللوحات المثلثة (للخطر) أو المستطيلة (للباقي). وعندما يضم سنن تواصلي ما صيغة واحدة فقط، فإنه لا يشير إليها: كل الرموز الرياضية والكيميائية إثباتية مثل رنات الأجراس قاطبة، وكل رنات الأبواق أمرية.

من المفيد الإشارة إلى الطابع الاجتماعي للصيغة لأنها اعتُبرت فعلاً سيكولوجيًا؛ هكذا كتب أنطون مايي متحدثًا عن ضروب الأفعال التي تساهم في التعبير عن الصيغة: «تُستعمل تسمية الصيَغ ويُقصد بها الأشكال التي بواسطتها يتحدد موقف الفرد المتكلم من الحدث الذي يشير إليه الفعل»[1]. إن إجراء المقارنة مع الأنظمة التواصلية الأخرى يجبرنا على التخلي عن وجهة النظر الذاتية هاته وتبني وجهة النظر السيمولوجية. وهذا التغيير للرؤية سيسمح لنا بالذهاب بعيدًا أكثر. مثلاً، عندما يريد شخص أن يعرف ما إذا كان أخوه موجودًا في البيت، يمكنه أن يسأل: «هل يوجد أخي في البيت؟» ويمكنه أن يؤكد: «أريد أن أعرف ما إذا كان أخي موجودًا في البيت» ويمكنه أن يأمر: «أخبرني ما إذا كان أخي في البيت»؛ بل

(1) Linguistique historique et linguistique générale, Paris, 1921, 1, p. 190.

يمكنه أن يتمنى إذا هو دفع الأمور أكثر: «آه لو كنت أعرف ما إذا كان أخي في البيت»! من حيث الجانب النفسي، يعبر المتكلم في كل مرة عن الرغبة نفسها؛ وهذا الجانب لا يسمح بتمييز الصيغ. لكنه من حيث الجانب الاجتماعي فالفرق كبير؛ تتطابق كل صيغة مع الرغبة في إقامة علاقة اجتماعية خاص. الصيغة إذًا هي ما يحدد نوع العلاقة الاجتماعية التي يقيمها المتكلم مع مستمعه.

ليست الصيغة سوى جزء من الدلالة: ينضاف إليها عنصر آخر سنسميه المادة التي تعَين موضوع الإثبات أو التساؤل أو الأمر أو التمني. ولمدة طويل خُيّل للبعض وجود الفكر في هذه المادة، ومن المؤكد أنها يمكن أن تكون محطة مؤدية إليه. لكن المادة في ذاتها هي أيضًا حدث اجتماعي كما سنرى ذلك فيما بعد.

غير أن ما قلناه سابقًا لا يحدد فعل التواصل تحديدًا كاملاً: ينبغي القول بأن الحدث المحسوس الذي يتم استعماله عُرفي أي ينظر إليه الفردان المعنيان بالأمر على أنه وسيلة. وبالفعل عندما نلاحظ أن سلوكنا يكشف بكيفية لا إرادية عن حالات وعينا وأن الأفراد يستغلونه ضدنا، فإننا لا نسعى فقط إلى كبح هذه التجليات بل نسعى كذلك إلى إنتاج تجليات أخرى يمكنها أن تُؤوَّل لصالحنا: عندما نختار منزلاً أو سيارة أو أثاثًا أو ورقًا لكتابة الرسائل أو مطعمًا أو مسرحًا إلخ... نعبر عن ذوقنا الشخصي ورتبتنا الاجتماعية. لذلك فإن أشخاصًا كثيرين لا ينساقون فقط وراء أذواقهم أو إمكاناتهم المادية، بل يسعون بالخصوص إلى خلق الانطباع بأنهم ينتمون إلى عالم معين. إنهم يذرون الرماد في العيون.

ونجد في هذا السلوك نية التأثير في ذهن الآخر، لكن مَن يتصرف هكذا لا يريد أن يُنظر إلى سلوكه على أنه وسيلة للتواصل؛ إنه يريد بالخصوص أن يرى فيه الآخرون تعبيرًا انتقائيًا، مؤشرًا، وإلا فإنه لن يحصل على الأثر المرجو. وينتج عن هذا أن فعل التواصل الحقيقي يوجهه صاحبه إلى المحاور لكي يعتبره وسيلة. ونلمس هنا جوهر ما يسمى بالعرف في ميدان التواصل.

عمليًا، تكون الإيحاءات اللاإرادية ممتزجة في الغالب بأفعال التواصل بكيفية وثيقة. لنفكر في الخبر الذي تقدمه الكتابة للمتخصص في دراسة الخط (الغرافولوجي)، كل واحد منا يضفي عفويًا على كتابته شكلاً خاصًا بها، وقد عرفت بعض العقول الراجحة كيفية إقامة علاقة منتظمة بين شكل كتابي ما والخاصية النفسية المطابقة له، وتجهل أغلبيتنا هذه العلاقة، وبعض الناس لا يفكرون حتى في وجودها.

لكتابتنا دلالة مزدوجة: هناك من جهة أولى الدلالة التي نعطيها إياها بكيفية إرادية، تلك التي تعلمناها في المدرسة، التي هي موجهة للمتلقي حتى يفهم حروفنا، وهناك من جهة ثانية الدلالة التي نعطيها إياها رغمًا عنا، تلك التي لم نتعلمها، التي يكتشفها المتخصص في دراسة الخط الذي لا يكترث بمضمون الحروف. تظهر هاتان الدلالتان في العلامات الخطية نفسها، ولا نعزل التعبير اللاإرادي للتواصل إلا بواسطة عمل تجريدي.

ويحصل الشيء نفسه بالنسبة لمستوى النطق. لقد تعلمنا أن ننطق مثل كل الناس؛ لكنه في الواقع لا يوجد شخصان يتكلمان

تمامًا بالطريقة نفسها، فنطقنا يوحي بجنسنا وسننا وحالتنا النفسية وأصلنا... إلخ. وهذه الدلالة غير متوقفة على إرادتنا؛ إنها ليست التأثير الذي نرغب إحداثه في المستمع إلينا، لكن الأشكال التي تتجلى من خلالها هي تمامًا الأشكال نفسها التي تستعمل للتواصل. إن مَن يريدون إخفاء أصلهم يفلحون أحيانًا في تبني نطق الطبقة الاجتماعية التي يرغبون في أن يُصنفوا ضمنها؛ لكنه من أجل الحصول على هذا التصنيف ينبغي طبعًا أن يعتبر المستمعون النطق الذي تبناه المتكلم إراديًا وكأنه تعبير غير إرادي.

من هذه الاعتبارات المختلفة تُستخلص الخصائص الأساسية لفعل التواصل. هناك خاصية مشتركة بين هذا الفعل والمؤشر: ففي كلتا الحالتين يقوم شاهد حدث ما بتأويل هذا الحدث على أنه يوحي بحدث آخر. في فعل التواصل، دائمًا يكون الحدث الذي أوحي به ذا طبيعة نفسية، ومهما كررنا هذا فلن يكون كافيًا. والأمر ليس دائمًا بهذا الشكل في لغة الوقائع.

إن ما يميز فعل التواصل عن المؤشر هو طابعه العرفي: فالحدث المحسوس المرتبط بحالة وعي يُنجَز إراديًا، وبغاية أن يعرف الشاهد مقصده. فعل التواصل هو باختصار الفعل الذي بواسطته، عندما يعرف فرد ما حدثًا مرتبطًا بحالة وعي معينة، ينجز هذا الحدث لكي يفهم فرد آخر غاية هذا السلوك ويعيد في وعيه الخاص تشكيل ما جرى في وعي الفرد الأول. أما دلالة هذا الفعل التواصلي فتتحدد على أنها التأثير الذي نحاول إحداثه في ذهن من نتوجه إليه.

من اللازم تجنب سوء الفهم فيما يتعلق بالدلالة. إن سائق السيارة الذي يُبقي على سرعة 80 كلم في الساعة، وهو يمر أمام عمود يُلزم بـ 60 كلم كحد أقصى، قد فهم جيدًا دلالة هذا العمود، لقد تأثر فكره، كما ينبغي، دون سلوكه. ويمكن كذلك أن أقول لزائر اجلس مع أنني لازلت أراه واقفًا. لقد تلقى ذهنه التأثير المطلوب، لكن سلوكه لم يتأثر.

من جهة أخرى، ينبغي الحذر من إعطاء إجراء تواصلي دلالةً أكثر مما يتضمنها. على سبيل المثال، إذا سمع الزوج، وهو يتأهب للخروج، زوجته تقول له: «المطر يهطل» سيعرف أنها ترغب في أن يأخذ مظلته أو معطفه أو ترغب أيضًا في أن لا يخرج؛ لكن هذا التمني لا يشكل جزءًا من دلالة الجملة المنطوقة؛ تقتصر هذه الجملة على التعريف بحدث هو المطر. وتترك الزوجة الحرية لزوجها في أن يختار السلوك المناسب له. وما يسمح لنا بالقول بأن جملة «المطر يهطل» لا تعني «خذ مظلتك» أو «خذ معطفك» أو «ابق في البيت» هو بالضبط كونها قابلة للاستعمال في حالات مختلفة كهذه: إذ تنحصر الدلالة فيما هو مشترك بين هذه الحالات، أي أن المطر يهطل. أما النية غير المعلن عنها (خذ مظلتك، أو خذ معطفك، أو ابقَ في المنزل) فلا تظهر إلا إذا أخذنا في الاعتبار السبب الذي جعل المرأة تقول بأن المطر يهطل؛ لكن دراسة الأسباب التي تجعلنا نقول هذا بدلاً عن ذاك أو نسكت عوض أن نتكلم لا تتعلق باللسانيات.

إن سائقًا يسير بسرعة 100 كلم في الساعة قد يتمهل عندما يرى لوحة تشير إلى وجود قناة في عرض الطريق؛ لكن إذا كان يسير

بسرعة 30 كلم في الساعة، فمن المرجح أن لا يغير من سرعته؛ فاللوحة لا تعني إذًا «سيروا على مهل» بالرغم من أن نتيجتها عمومًا هي هذه. من جهة أخرى، يعلم السائق جيدًا بأن السلطة وضعت هذه اللوحة لتتبرأ من المسؤولية عند وقوع حادثة؛ وهذه النية كذلك ليست جزءًا من دلالة اللوحة.

وسنجد لاحقًا بعض الاعتبارات حول تأويل الدوافع أو الأسباب؛ وهذا التأويل يولد وسيلة تواصل غير مباشرة تأتي لتنضاف إلى أخرى.

2- تسميات جديدة:

إن مصطلح لغة (langage) يطلق تارة على مجرد المؤشر وتارة أخرى يطلق على التواصل الحقيقي؛ ولتجنب الخلط من المفيد اللجوء إلى مصطلح خاص بالنسبة لموضوع السميولوجيا هو السيميائية (la sémie).

وسيُطلق لفظ السيمياء (le sème) على كل إجراء عُرفي يُمكن إنجازه الملموس (المسمى الفعل السيميائي acte sémique) من تحقيق التواصل. وسنوضح الفرق بين السيمياء والفعل السيميائي في الفصل اللاحق.

هناك سيمياءات تبدو معزولة تجاور سيمياءات مجتمعة في سيميائية واحدة. مثلاً، من الممكن أن يتفق صديقان على صفير معين كي ينادي أحدهما الآخر. ولكن ليؤدي صفيرهما وظيفته، من البديهي أن يكون مختلفًا عن الصفير الذي يستعمله أشخاص

آخرون: ينبغي أن يكون ترنيمه مختلفًا كي نفهم أنه يعني ينادي زيد محمدًا وليس ينادي قيس عبد الله؛ فهو إذًا مترابط مع باقي السيمياءات المنتمية للنوع نفسه. من جهة أخرى، عندما يلاحظ الطفل لأول مرة بأن حركاته المستعملة لتنفيذ أي شيء، قد فُهمت، فإنه يعمد إلى التعميم، بمعنى أنه يوسع إمكانية أن يفهمه الآخرون باللجوء لاحقًا إلى حركات أخرى تتعارض مع الأولى. وباختصار، تتعارض كل سيمياء إما بكيفية حقيقية مع باقي السيمياءات المنتمية للنوع نفسه والموجودة فعلاً. وإما بكيفية افتراضية مع السيمياءات التي نتصورها ممكنة في المستقبل والمنتمية للنوع نفسه. إن مجموعة من السيمياءات المتعارضة هكذا تشكل سيميائية.

داخل السيميائية الواحدة، تكون السيمياءات عمومًا مهيأة لأن تنجز بواسطة وسائل متشابهة. يستعمل الرياضيون وسائل خطية (غرافية) ويستعمل اللاترابيون الحركات؛ كما أننا قادرون على التواصل بواسطة الصفير. لكن طبيعة هذه الوسائل تختلف عن طبيعة الكلام ولها صلة بسيميائية أخرى.

غير أن هذه الوحدة التكوينية ليست قاعدة مطلقة رغم كونها عادية؛ فالإشارات الطرقية تستعمل اللوحات والخطوط على الأرض والأضواء اللامعة. وفي المسرح يصفق الجمهور أو يصرخ، يصفر أو يهدي الزهور أو يقذف بشظايا مختلفة. ولكي نستطيع القول بأن سيمياءين تنتميان إلى السيميائية نفسها، ينبغي أن نبين أن تعارضهما الشكلي يتقابل في ذهننا مع تعارض ذي دلالة. على سبيل المثال، إذا صفر متفرج عوض أن يصفق، فهو يختار بين الإجراء

المعبر عن الاستهجان والإجراء المعبر عن الاستحسان في وضعية اجتماعية معينة. وينتمي كل مَن أكرهك وأحبك إلى السيميائية نفسها، بخلاف I love you فالتعارض الشكلي بين أكرهك وأحبك يقابله تعارض على مستوى الدلالة في وضعية اجتماعية واحدة؛ غير أن I love you تستعمل في وضعية اجتماعية أخرى.

3- المجال السيميائي:

إن السيميائيات (مفردها سيميائية)(*) الأكثر شهرة هي الألسنة بطبيعة الحال. وإضافة إليها، ينبغي أن نذكر العلامات الخطية للعلوم الدقيقة وعلامات المنطق وإشارات الطريق وحركات الرهبان اللاترابيين والعلامات التي يستعملها هنود أمريكا للتواصل بين قبائل لا تتكلم اللغة نفسها وقرع الأجراس في الكنيسة ونفخ الأبواق في الجيش. ويُستعمل عدد من العلامات الخطية لتحديد مواقيت القطارات وفي الكتب السياحية. ولا تتكون الخريطة الجغرافية إلا من علامات من هذا القبيل. إن مَن يصحح المخطوطات المطبعية يستعمل سننًا من العلامات للتواصل مع المطبعي. وتحمل أجهزة الراديو علامات مختلفة لإظهار كيفية استعمالها.

من اللازم أن نذكر أيضًا علامات التصنيع ولافتات المتاجر وبدلة الجندي والموظف والإشارة الصوتية المميزة لأجهزة الراديو

(*) ملاحظة من المترجم.

وإشارة تحديد الساعة (**) والمصباح الأحمر لمخرج الإغاثة (sortie de secours) والقنينات السمراء أو عديمة اللون للصيدلي ورأس الميت.

يمكن لهذه اللائحة أن تكون أوسع مما هي عليه [1]، لكن ينبغي أن نؤكد أنها لا تتضمن الأبجدية ولا كتابة براي ولا سَنن المورس: هذه الأنظمة لا تكون مفهومة إلا عندما نعرف لغة مَن يستعملها. وعكس ذلك، فالسيميائيات المذكورة من قبل ليست لها أية قاعدة لغوية.

يُسمى الفن عادة بأنه لغة. وهنا لابد من إجراء تمييز أساسي. إن الفنان هو الإنسان الذي يتمتع بحساسية عالية فيحس ببعض الانفعالات عندما يلاحظ بعض الظواهر ويعيد إنتاجها مغيرًا فيها بحسب طريقته حتى يُبرز العناصر التي أثرت فيه. يعيد الرسام التشكيلي خلق عالم من الألوان ويعيد المصور خلق عالم المنظور الحقيقي بواسطة منظور ذي بعدين، ويعيد الراقص خلق عالم الحركة بواسطة الحركة، ويعيد الموسيقي خلق عالم الصوت بواسطة الصوت، والشيء نفسه يقوم به المهندس في البناء والخطيب في الحجاج والراوي في السرد والممثل في التمثيل والشاعر في الكلام. لا يقوم الفنان بالاستنساخ، بل يغير من مثاله؛ وفي غالب الأحيان، لا يفكر أبدًا في أي مثال؛ إنه ينقلنا إلى عالمه الخاص به. يتجلى الفن في هذا الانزياح بين الواقع والعمل الفني.

(**) يتعلق الأمر بإشارة صوتية لتحديد الساعة بدقة.

(1) انظر المقال الرائع لجورج مونان المذكور في نهاية المقدمة.

لكننا لا نجد هنا أي شيء يماثل الرغبة في المشاركة التي هي أساس السيميائيات. لا يستجيب الفن لحاجة اجتماعية مثل الخطاب؛ إنه يلبي حاجة التعبير وإظهار الأحاسيس الجمالية. نلاحظ ذلك كثيرًا في التجليات الفنية الأولى لدى الطفل الموهوب، بمعنى أنه فنان قبل أن يكون واعيًا بذلك، وفنه تعبير تلقائي لا يدركه إلا متأخرًا؛ ومن خلال ملاحظة ردود فعل محيطه يفكر في إمكانية استعمال فنه لإنتاج ردود فعل من هذا القبيل والتأثير فيه، أي للتواصل. عندما يفهم الجمهور العمل الفني أي عندما يؤثر العمل فيه بالكيفية التي أرادها الفنان، إذ ذاك ينشأ بينهما توحد في المشاعر فيظهر الفن في نهاية المطاف وكأنه إمكانية للتواصل.

لهذا التواصل فائدتان بالنسبة للفنان:

أولاً، عندما يتقاسم الفنان لذته الفنية مع جمهوره، فهو نفسه يتلذذ بذلك أكثر، أضف إلى ذلك أنه يحصل في الغالب على امتيازات اجتماعية مقابل اللذة التي يمنحها. هكذا يَؤول الأمر بالعمل الفني إلى أن يكون إنجازه للجمهور، فيصبح الفن ظاهرة سيميائية بينما لم يكن في البداية، أساسًا، سوى تعبير تلقائي؛ ينبغي إذًا أن نخصص للفن مكانًا متميزًا جدًا ضمن الظاهرة السيميائية، فهو مشروط جوهريًا بالحاجة إلى التعبير، وطابعه السيميائي ثانوي.

تستدعي الرموز كذلك هذه التعليق: كان هيجل[1] يُعرّف الرمز على أنه «شيء معطى أو حاضر بصورة مباشرة في الإدراك،

(1) Esthétique, trad. Ch. Bernard, Paris 1875, p. 116.

وينبغي أن يُفهم لا كما يظهر مباشرة، في ذاته، ولكن بمعنى أوسع وأكثر عمومية»؛ وإذا كان علينا أن نتبع هيجل فينبغي اعتبار نُتَف الثلج على الزجاج بمثابة رمز للصقيع وهذا لا يهم السميولوجي: فالأمر يتعلق بمؤشر.

وقد درس إرنست كاسيرر[1] أحد الأدوار النفسية للخطاب والإبداع الفني وتكوُّن الأساطير؛ وهو عندما يصف هذه الأنشطة بأنها رمزية يفكر فقط في قدرتها على أن تجعل من فكرنا شيئًا موضوعيًا. والواقع أن فكرنا عندما يُترجم إلى كلمات في عمل فني أو في أسطورة، فإننا نستطيع أن نتأمله بكيفية موضوعية؛ ولكن في هذه العلاقة بين الفكر والرمز لا يوجد أي شيء اجتماعي ولا أي شيء سيميائي.

يعتبر الصليب اللاتيني رمز الديانة المسيحية. ويهتم به السميولوجي عندما يكون موضوعًا على نُصب مخصص للشعائر المسيحية أو متدليًا من عقد امرأة مسيحية. ولكن ليس له أي وظيفة تواصلية داخل خزانة زجاجية لشخص ما أو لمتحف يحفظ فيه بالصُلبان(*) لقيمتها الفنية. إن الخادمة الانجليزية عندما تُحَضّر صحنًا من الأرز، لا تولي أية قيمة رمزية إلى الحبوب التي تستعملها، ولكنها إذا ما حضَرت في اليوم التالي حفل زفاف وألقت بحفنة أرز على المتزوجين فإنها تجعل من الحبوب رمزًا للخصوبة التي تتمناها للأسرة الجديدة. وتروج في بروكسيل خرافة مفادها أن الجنرال

(1) Philosophie der symbolischen formen, Berlin 1923.

(*) مفردها صليب. (المترجم).

الألماني الذي أتى لاحتلال المدينة في أغسطس 1914، قام بزيارة أدولف ماكس الذي كان عمدة المدينة آنذاك فدخل عليه ووضع المسدس على مكتبه بصورة علانية؛ وللرد عليه وضع ماكس مقبض قلمه بجانب السلاح: مؤقتًا أصبح المسدس وقبضة القلم وسيلتين للتواصل. إن الطابع السيميائي لحدث أو لشيء ما متوقف على الوظيفة التي نُسندها له.

ومما نصفه كذلك بالرمزي حركة الوزير وهو يقطع الشريط الذي يسد طريقًا حديث البناء، وحركة القس وهو يصب الماء على رأس مَن يُعَمِّده وحركة المستكشف وهو يغرس علمًا في أرض تم اكتشافها حديثًا وحركة الجنرال وهو يسلم سيفًا إلى المنتصر. لا نجد في هذا أثرًا لما هو سيميائي. ولا تعدو هذه الحركات أن تشكل بداية فعل جدي: بداية استعمال الطريق وبداية التطهير التام للكائن وبداية احتلال الأرض وبداية استسلام الجيش. ويمكن مقارنة هذه الحركات بحركة مَن يدفع تسبيقًا ليشتري شيئًا ما: فالشروع في تأدية الثمن يجعلنا نشعر بالثقة أكثر من أي وعد آخر. ومن المؤكد أننا نؤول هذه الأحداث؛ لكننا هنا إزاء مؤشرات. ما الشيء الذي لا نؤوله؟

إننا نمس حدود المجال السيميائي عندما توضع مثلاً كلمة «هش» أو صورة كأس على صندوق للبضائع ينبغي نقله باحتياط، وعندما تكتب كلمة «أعمى» على لافتة يحملها متسول، وعندما يُلصق المنتج التجاري علامة التصنيع على أحد منتوجاته، أو عندما أصيح «رائع» لِرؤية مشهد ما. في كل هذه الحالات يرتبط عنصر

سيميائي لاريب فيه بإنسان أو شيء لا صلة له بما هو سيميائي. الأمر نفسه يحصل عندما تمر مجموعة من السياح، على متن الحافلة، أمام المآثر المهمة لإحدى المدن؛ فالمرشد السياحي يحدثهم عن المآثر، لكن ليس لها أي شيء سيميائي.

ويقودنا هذا إلى الحديث عن الصور والأفلام. لنفترض أن فيلمًا يعرض شخصية مهمة تدشن أحد المباني؛ فلكي نؤول هذا الحدث تأويلاً جيدًا، ينبغي أن نعارضه بالتحقيق الإذاعي (الروبورتاج) لِنَقْل الحفل: يُؤَول المذيع ما يراه ويُعرفنا بنتيجة هذه السيرورة الذهنية؛ إنه ينقل إلينا، بالفعل، جزءًا مما يجري في ذهنه؛ فثمة تواصل بين الأفراد. لكن سِحاء الفيلم (pellicule) تكتفي بأن تقدم لنا الأثر الذي تركته هذه الأحداث عليها؛ فالذي قام بالتصوير ليس هو موضوع النقاش، لا نعرف عنه شيئًا ولا يَعرفنا بأي شيء. ليس ثمة حدث اجتماعي: نحن نقوم بتأويل الصور مثلما قد نُؤول الأحداث التي تمثلها هذه الصور.

وإذا كان ينبغي أن نرى في حالة مثل هذه حدثًا سيميائيًا فينبغي أن نرى الشيء نفسه كذلك في كل مُدركاتنا، كلما تعرضت شبكية العين rétine لأشعة ضوئية، تُحول هذه الانطباعات إلى ظاهرة عصبية تُنقل إلى دماغنا الذي يقوم بتأويلها. وبمعنى خاص، نستطيع أن نقول بأن الأعصاب توصل شيئًا إلى الدماغ، لكن الأمر لا يتعلق بتواصل اجتماعي: حيث لا نجد كائنًا يريد التأثير في ذهننا. إن الفيلم وسيلة تسمح بتقديم الأحداث أمام أعيننا عوض الانتقال إلى مكان الحدث؛ فالمرأة العادية والمقراب télescope والمِنفاق

périscope هي وسائل أخرى من النوع نفسه. وتُمكننا الآلة المسجلة من سماع أحداث جرت في الماضي. وفي المسرح، يحاكي الممثلون شخصيات واقعية تتواصل مع بعضها البعض؛ هم لا يتواصلون مع الجمهور: والجمهور لا يعدو أن يَحضر جزءًا من الحياة الاجتماعية يجري في عالم لا ينتمي إليه. يمكن أن ينشأ تواصل بين المؤلف والجمهور من خلال الفيلم أو المسرحية أو من فوقهما، ولكننا هنا إزاء سيميائية تنضاف إلى المشهد المعروض، وسنتحدث عنها لاحقًا.

4- اللجوء إلى الدلالة:

أوضح الجزء الأول من هذا الفصل ما هي الوسيلة غير المباشرة التي نستطيع بواسطتها معرفة ما يدور في ذهن الأفراد الآخرين. وهذا شيء بديهي بالنسبة للأغلبية، مع أن بعض اللسانيين اختلفوا فيه. وقد اقترح B. Bloch [1] إقصاء الاعتبارات الدلالية من اللسانيات بسبب عدم قابليتها للملاحظة. ويذهب بعض اللسانيين إلى حد التأكيد بأن دراسة الدلالة لا تشكل جزءًا من اللسانيات.

حاول زليغ هاريس القيام بجرد لفونيمات لغة يُفترض أنها غير مفهومة، لكنه اضطر إلى الاعتراف بأنه كي نثبت مثلاً أن الفونيمين الأخيرين من he is in هما نفس الفونيمين الأخيرين من that's my

(1) Language, XXIV, 1948.

pin، من اللازم اللجوء إلى شهادة فرض يفهم اللغة الانجليزية[1] ولم ينجح أحد بعد في الاستغناء عن الدلالة بصورة تامة.

والذين يرغبون في ذلك متأثرون طبعًا بما كتبه ليونارد بلومفيلد سنة 1933 في كتابه «اللغة»، حيث لاحظ، عن صواب، بأن السيرورات النفسية غير قابلة للملاحظة، فرفض أن يأخذها في الاعتبار: «الأمر البديهي الوحيد فيما يخص هذه السيرورات الذهنية هو السيرورة اللغوية؛ إنها لا تضيف شيئًا إلى النقاش، بل تُعتمه» (ص 17).

يستدعي هذا الموقف ملاحظتين: أولاً، ليس صحيحًا أننا لا نعرف السيرورات النفسية إلا من خلال اللغة: فكل الوسائل السيميائية الأخرى تُعرفنا بذلك أيضًا، ينضاف إليها سلوك الفرد بأجمعه.

من جهة أخرى، كتب بلومفيلد أن عالم الأصوات غير قادر على معرفة الفونيمات «مادام يجهل معنى ما يقال[2]» (ص 78) إن بلومفيلد يستدعي الدلالة باستمرار، ولكن عوض أن يبحث عنها في ذهن المتكلمين، هو يبحث عنها في الوضعية الاجتماعية التي تجمع المتكلم بمستمعيه. بهذه الطريقة يتعلم الطفل الكلام: يقيم علاقة بين ما يسمعه والوضعية الاجتماعية التي يسمع فيها ذلك.

---

(1) Structural linguistics, Chicago, 1951, p. 20.

(2) قد سبق آخرون في الإشارة إلى أهمية الدلالة. انظر د. جونسن: The history and meaning of the term phoneme, 1957.

إن الثورة التي أحدثها علماء الصوتيات لبراغ تكمن تحديدًا في إدخال الدلالة بكيفية رسمية إلى علم الأصوات: تدرس الفونولوجيا النطق بصفته وسيلة اجتماعية للتواصل؛ ولاستخراج الفونيمات، تقارن بين الدوال أي بين أشكال مرتبطة بمدلولات. وقد اعتُقد في الماضي أن الآلة هي أساس هذه الدراسة، ومع علماء الصوتيات أصبحت الدلالة مقياس كل شيء لساني.

إن المشكل الحقيقي هو استنباط الدلالة من الوضعية الاجتماعية. إن الأمر سهل في جملة مثل تُحَضر أمك الطعام: يكفي أن نرى ما يجري؛ لكن جملة ستحضر أمك الطعام لا تتعلق بأي نشاط متصل بالوضعية الاجتماعية التي نُطقت فيها هذه الجملة. ينبغي إذًا أن ننكب على مقارنات بين عدة وضعيات.

صحيح أننا لا نستطيع إدراك الدلالة إلا بمساعدة الأشكال سواء كانت لسانية أو غير لسانية، لكننا ندركها. مثلاً، يمكن أن نسأل فرنسيًا: «مـا معنى جملة كيف أنت؟» وسيجيب بجملة أخرى: «كيف حالك ؟» أو «مـا حالتك الصحية؟»، ويمكن كذلك أن تظهر له لوحة للإشارة الطرقية ونسأله عن معناها وسيجيب بأنها تفيد منع الوقوف. إن إثبات التكافؤ بهذه الكيفية بين جملتين أو بين لوحة إشارة وعبارة لغوية يسمح لنا بالوصول إلى الدلالة.

صحيح أن الوضعية الاجتماعية لا تسمح لنا إلا بصياغة افتراض، وأحيانًا يكون من الصعب تحديد نصيب الدلالة الذي يؤديه هذا الجزء من السيمياء وهذا الجزء من الجملة؛ لكن الإرسالية

في كليتها تكون واضحة على العموم. كيف يمكن تفسير ذلك إن لم يكن بوجود الترجمات؟

إن الدلالة هي التأثير الذي نريد إحداثه باللجوء إلى وسيلة عرفية؛ إنها ظاهرة اجتماعية، وهذا هو بالتحديد ما يسمح لنا بأن نَعْرفها أحسن بكثير من الفكر الفردي. وستمكننا الصفحات التالية من تحديد الفرق بين الفكر والدلالة.

الفصل الثاني

2

تعريف السيمياء

1- المنطق والتصنيف:

قبل القيام بالتمييز بين الفعل السيميائي والسيمياء (انظر الفصل الأول)، من الضروري أن يكون لنا تصور واضح عما نسميه بالتجريد. تميز كثير من الأنحاء بين الأسماء المجردة والأسماء المحسوسة. وهي تقصد بذلك الأسماء التي تعين أشياء مجردة وتلك التي تعين أشياء محسوسة؛ ونعرف مدى الخلط الذي يسود هذا الموضوع. لكن الأمر هنا يتعلق بتمييز آخر.

قبل كل شيء، ينبغي فصم العلاقة التي أقامها البعض بين التجريد والكلمة قائلين بأن التجريد غير ممكن إلا بفضل الكلمة. وقد تنازع الاسميون والواقعيون والتصوريون بخصوص هذا الموضوع في العصور الوسطى؛ ولحسن الحظ نتوفر اليوم على دراسات عديدة تخص سلوك الحيوانات، مما يسمح لنا بأن نكـــون

متيقنين من كون التجريد ليس امتيازًا يختص به الإنسان الناطق؛ فالحيوانات التي لا لغة لها تقوم بالتجريد بكيفية طبيعية مثلنا.

من بين الأعمال المتعلقة بهذا الموضوع، سنأخذ عمل عالم النفس لوي فرلين[1] الذي قام بتجارب على القرد. لقد رتب مجموعة من الأوراق السميكة (الكرتونات) على الأرض، في غياب الحيوان. ولهذه الأوراق السميكة أشكال وألوان وأحجام متعددة؛ وتحت كل الأوراق ذات الشكل المثلث كيفما كان حجمها ولونها. وضع دودة طحين، بمثابة قطعة حلوى بالنسبة للقرد. هكذا أدخل الحيوان ووقعت أمامه إحدى الأوراق المثلثة فأخذ دودة الطحين وأكلها. بعد ذلك، شرع في رفع باقي الأوراق بحثًا عن دودات

(1) Le flambeau, Bruxelles, Janvier 1934. إن تجارب فرلين معروضة هنا بصورة مبسطة.

أخرى. في البداية كان يرفع الأوراق بالصدفة، لكن بعد وقت معين لم يعد يرفع إلا الأوراق المثلثة.

يدل هذا التغيير في سلوك الفرد أنه وجد منهجًا لتوفير عنائه: فقد لاحظ وجود علاقة بين الشكل المثلث ووجود الدودة. والحال أن الأوراق المثلثة ليست متشابهة: بعضها متساوي الأضلاع وبعضها الآخر مستطيل، إلخ؛ وليس لها جميعًا اللون نفسه أو الحجم نفسه. من الواضح إذًا إن القرد عزل الشكل المثلث في ذهنه مع أن هذا الأخير يرد دائمًا مرتبطًا بخصائص شكلية أخرى. إذا وضعنا، مباشرة بعد هذه التجربة، الدود تحت الأوراق الرمادية كيفما كان شكلها أو حجمها، سيبدأ القرد طبعًا بقلب الأوراق المثلثة، لكنه بعد مضي وقت معين لن يقلب إلا الأوراق الرمادية. إنه في هذه المرة يعزل بفكره اللون الرمادي مع أن هذا الأخير يرتبط دائمًا في إدراكه بأحد الأشكال وبأحد الأحجام.

وباختصار، فالقرد قادر على أن لا يأخذ في الاعتبار كل ما يدركه: هو يركز اهتمامه فقط على الخاصية التي يكون التعرف عليها مفيدًا بكيفية مؤقتة بالنسبة إليه، أي تلك التي تؤدي وظيفة في سلوكه. التجريد هو أن نعزل بواسطة الفكر ما ليس معزولاً في موضوع الفكر. هكذا نرى أن سيرورة التجريد ليست متصلة البتة بوجود الكلمات، فكل الحيوانات تلجأ إلى التجريد.

لقد كتب ج لابورت [1] بأننا لا نجرد إلا ما نقارنه. ويتضمن هذا أننا لا نجرد إلا ما يتكرر. راكم قرد فرلين بعض التجارب

(1) Le problème de l'abstraction. Paris, 1914, p. 119.

الناجحة والفاشلة، فلاحظ أن الخاصية نفسها تتكرر في كل التجارب الناجحة؛ ولقد مكنه وجود هذا العنصر من اعتبار كل التجارب الناجحة متكافئة. وعادة ما نفعل الشيء نفسه: نعرف مثلاً بأنه في كل يوم على الساعة العاشرة يذهب قطار من بروكسل إلى باريس، فنتحدث عن قطار العاشرة كما لو كان القطار نفسه في كل يوم، بينما من الممكن أن تتغير القاطرة والعربات وأن يتغير المستخدمون. يكفي أن يتكرر العنصر الوظيفي بالنسبة إلينا، أي إمكانية ركوب القطار نحو باريس على الساعة العاشرة.

لنأخذ مثالاً آخر: لنفترض أن عازف آلة البيانو يعزف سوناتة معينة مستعملاً على التوالي آلتين تختلف إحداهما عن الأخرى بربع مقام، حيث ستختلف كل نوتات (Notes) الأداء الثاني عن نوتات الأداء الأول، ومع ذلك سنقول بأن الأمر يتعلق بالسوناتة نفسها. إذا عزف السوناتة فنانان لهما مزاجان مختلفان، فإن الأداءين سيختلفان اختلافًا عميقًا، ومع ذلك سنتعرف على السوناتة. إن ما يكوّن السوناتة ليس هو مجموع الإدراكات التي تحصل لنا خلال أداء واحد، بل هو جزء من هذه الإدراكات: تلك التي تكون مشتركة بين مختلف الأداءات.

لكي نفهم على نحو أفضل الفرق بين المجرد والمحسوس، يكفي أن نطلب من فنان تشكيلي رسم الحصان، سيرفض قائلاً بأنه لا يستطيع أن يمثل إلا حصانًا محسوسًا له أصل معين ولون معين وقامة معينة وجنس معين وسن معين وفي موقع معين، إلخ، أي حصانًا متميزًا عما سواه وفي لحظة محددة من وجوده.

توجد الفكرة المجردة للحصان في ذهننا لأننا نستطيع بفضلها وصف كائن لم نره من قبل بأنه حصان، لكن هذه الفكرة غائمة بسبب كونها مجردة، على وجه التحديد. إنها غائمة بمعنى أنه من المستحيل أن نتمثل الحصان، لكنها محددة بمعنى أنه بمقدورنا ذكر العناصر المكونة لها.

تضطلع ملكة التجريد بدور أساسي في التواصل. ونعرف ذلك منذ أمد طويل[1]. وقريبًا منا، أثبتت الدراسات التي أجريت على المصابين بالحبسة أن التواصل اللغوي مستحيل بدون التجريد: ليس هؤلاء المصابون بالحبسة عاجزين عن الكلام بكيفية طبيعية فقط، بل إنهم كذلك عاجزون عن فعل أي شيء يتضمن اللجوء إلى التجريد. ويسمي عالما النفس جيلب وغولد شتاين هذا التغيير الجوهري بفقدان الوظيفة المقولية أو فقدان «السلوك المقولي»[2].

وبالفعل يصبح الأفراد المصابون عاجزين إما جزئيًا أو كليًا عن تصنيف الأشياء في أقسام. على سبيل المثال يكون أحد المصابين بالحبسة غير قادر على تصنيف خيوط الصوف حسب لونها؛ فأي فرق خفيف بين الألوان يدفع به إلى التفريق بين الخيوط؛ كما يكون الآخر غير قادر على قراءة كتابة غير كتابته. ويخلص صاحب هذه الرسالة إلى أن «الأمر لا يتعلق هنا بخلط أي تأويل خاطئ لما هو

(1) كان السكولائيون يقولون بأن «الأصوات تعيّن الأشياء بينما توحي بها المفاهيم = Voces significant res mediantibus conceptis ».

(2) Journal de psychologie. Paris. 1933. pp. 403-496.

مرئي: بل إن سلوك المريض ناتج بالأحرى عن أن رؤيته أصبحت محسوسة بشكل أكبر، متطابقة في ذلك مع التغير الجوهري الذي طرأ عليها. عندما نقرأ الكتابة، نغض الطرف عن «التفاصيل الثانوية» و«الزخارف» ولا نميز إلا «الأساسي»، إلا هيكل الحرف إذا صح القول. تكون رؤيتنا فئوية. يظهر لنا الحرف الذي نراه على أنه يمثل الباء أو الميم، إلخ. أما المريض فإن ميله لا يكون إلا لرؤية الشكل المحسوس الذي قد يكون أحيانًا شبيهًا بشيء ما أكثر من شبهه بالحرف» (ص 420).

لنشر إلى أن عالمي النفس المذكورين يقيمان تعارضًا بين الرؤية المحسوسة للمصاب بالحبسة والرؤية المجردة للإنسان العادي. فما يسميانه السلوك المقولي ليس سوى التجريد الذي تنعدم اللغة بدونه.

2- التمييز بين الفعل السيميائي والسيمياء:

ببساطة، يبدو الفعل السيميائي لأول وهلة على أنه ترابط فعل (acte) محسوس - يتيح إقامة العلاقة الاجتماعية - بحالة وعي نريد إظهارها. لكن ينبغي أن لا ننسى الطابع العرفي لهذا الترابط: فالفعل المحسوس، هو بالخصوص، تكرار فعل سابق، إلا في حالة ما إذا كان الفعل الأولي الذي سيتكرر لاحقًا شريطة أن تتكرر الظروف التي كانت السبب في استعماله لأول مرة. والحال أنه من المستحيل تكرار فعل بكيفية دقيقة للغاية. لنأخذ، على سبيل المثال، حالة

الكلب الذي يرغب أن نفتح له الباب. من البديهي أن حركات مختلف الكلاب التي تتصرف بهذه الكيفية متنوعة إلى حد كبير. ومع ذلك نعتبرها متماثلة بما يكفي لكي نعطي لها الدلالة نفسها. لا يهم أن يخدش الكلب بقائمة واحدة أو باثنتين، أن ينبح أو لا، أن ينظر إلينا أو لا؛ نعزل في سلوكه شيئًا واحدًا لا يوجد بصورة منعزلة، كونه يخدش الباب؛ إننا نقوم بالتجريد.

في الطريق عندما يتبادل رجلان التحية بالقبعة، نلاحظ أن كيفية التحية تختلف من واحد إلى آخر. لكن شيئًا واحدًا مشترك بينهما: كونهما ينزعان القيمة. ليست لوحات الطريق الإشارية متماثلة بكيفية دقيقة بين بلد وآخر. قد تتغير أحجامها، وقد يكون الأحمر أو الأزرق أكثر شحوبًا أو غامقًا أكثر. لكن يكفي أن تكون اللوحة دائرية ومحفوفة بالأحمر كي يعرف السائق بأن الأمر يتعلق بالمنع.

الشيء نفسه يحصل على المستوى اللغوي. إذا طلبنا من رجل أن يعيد محاضرة ألقاها بالأمس فمهما كرر الألفاظ حرفيًا، فإنه سيدخل عليها مجموعة من التغييرات بالرغم منه؛ ومع ذلك سيقول كل الناس بأنها المحاضرة نفسها؛ لأننا نأخذ في الاعتبار بعض الخصائص بكيفية تجريدية. من جهة أخرى، كوني أتعرف على أصدقائي من خلال أصواتهم يدل أنهم يتكلمون جميعًا بكيفية مختلفة وأني ألاحظ ذلك. ورغم هذا لا أتردد في القول عند الاقتضاء بأن الكلام الذي يتلفظ به زيد هو الكلام نفسه الذي

تلفظ به محمد. إن جملة مثل «أعطني كتابك» يمكن أن يتلفظ بها رجل أو امرأة، صاحب الصوت الحاد أو صاحب الصوت الغليظ، قاطن مرسيليا أو بروكسيل، كما يمكن التلفظ بها بكيفية بطيئة أو سريعة، بالهمس أو بتحريك الحبلين الصوتيين: سنقول دائمًا بأنها الجملة نفسها، فمن خلال كل التنويعات، ندرك حضور العناصر الوظيفية نفسها، تلك التي تسمح بأن نقول بأن الأمر يتعلق بالجملة نفسها. والكتابة وسيلة لتسجيل هذا التجريد.

وإذا كان ينبغي للكتابة أن تسجل نطقنا بدقة، فإن أبجدية لكل فرد لن تكون كافية، لكن الكتابة كافية لتحقيق التواصل لأنها تسجيل العناصر الوظيفية.

تبين هذه الأمثلة المتنوعة أن ذهننا يقوم بالتجريد لحظة حصول الفعل السيميائي الملموس: فعوض اعتبار أفعال مختلفة حول بعض النقط ومتشابهة حول نقط أخرى، نقوم بتجميع الأفعال في أصناف ونجرد عناصرها الوظيفية المشتركة. وينتج عن ذلك أن موضوع السميولوجيا ليس هو بالضبط الفعل السيميائي في واقعه الملموس، بل هو فقط مجموع عناصره الوظيفية، وعندما يكون السميولوجي شاهدًا على فعل سيميائي، يتحتم عليه أن يستخرج منه السيمياء. ويقوم اللساني بالعمل نفسه: إذا هو أراد دراسة الكلام، ينبغي أن يتأكد أولاً بأن الأمر يتعلق بسلوك مخصص للتواصل، بحدث اجتماعي؛ من أجل هذا يتحتم عليه أن يوظف أفرادًا عديدين يستعملون هذا الكلام وأن يقارن بين طرق كل

منهم؛ وهو بهذا يقصي التنويعات الفردية ويجرد الموضوع الحقيقي لدراسته. وهذا الموضوع ليس ملموسًا. لنفترض، ولو للحظة واحدة، أن لغة غير مكتوبة على وشك الاندثار وأن كل الأفراد الذين يتكلمونها ماتوا باستثناء واحد منهم. إن دراسة كلام هذا الفرد ستعطي بالطبع معلومات ثمينة حول اللغة، لكنها لن تمكننا من الحصول على رؤية مضبوطة لهذه اللغة، إذ سيكون من المستحيل عزل ما يكوِّن المميزات الخاصة بهذا الفرد عما يكوِّن الحدث الاجتماعي للتواصل.

في الأمثلة التي انتهينا من معالجتها، لم نتحدث إلا عن الاختلافات الموجودة في الأفعال المحسوسة المستعملة للتواصل؛ ونجد التجريد نفسه عندما نهتم بمقصدية مَن يلجأ إلى هذا الفعل. في المثال المتعلق بالكلب الذي يرغب في أن نفتح له الباب، ليست الوسيلة المستعملة خاصة بحالة وعي واحدة لهذا الكلب ذاته؛ إن هذا السلوك يصلح لمجموعة من حالات الوعي المتشابهة، لا المتماهية: إنه يصلح بالتحديد لما هو مشترك بين كل هذه الحالات. إن استعمال القبعة للتحية من طرف صديقين يصلح للتعبير عن مواقف متنوعة لها عنصر مشترك. ونفس الحال بالنسبة للوحات الطريق الإشارية التي تعلن عن طريق منحرف، فقد يكون الانحراف كبيرًا أو صغيرًا؛ ويمكن للوحة أخرى أن تعلن عن طريق ليس ذا أسبقية يؤدي إلى اليسار أو اليمين أو يخترق الطريق الذي له أسبقية. إن المعلن عنه جزء من الواقع الملموس. لنتأمل أخيرًا جملة مثل «أبي مريض»: تنطبق هذه الجملة على آباء مختلفين

وعلى أمراض مختلفة؛ فهي ليست مرتبطة بحالة وعي ملموسة، بل بما هو مشترك بين حالات متعددة، أي بالتجريد.

قلما نكون واعين بالفرق بين الدلالة المجردة للسيمياء وحالة الوعي التي هي أساسها الملموس. لكن من السهل أن نجعل الفرق واضحًا بكيفية تجريبية. عندما نقرأ رواية غير مصورة، نتخيل صورة ما للشخصيات والأحداث. لكن إذا عثرنا فيما بعد على نسخة مصورة من الرواية نفسها، سنلاحظ أن الفنان تخيل صورة مغايرة لنفس الشخصيات أو الأحداث. وهذا الاختلاف ممكن لأن النص لا يقدم صورة ملموسة. عندما يمر سائق السيارة أمام لوحة مثلثة تشير إلى أن الطريق منحرف، لا تكون لديه إلا فكرة غامضة عن هذا الانحراف ولا يستطيع أن يلمس دلالة هذه اللوحة إلا عندما يعاين المنعطف.

وإذا كان هذا السائق نفسه في زيارة لمحل تودع فيه لوحات إشارية من ضمنها تلك التي تعلن عن المنعطف، لن يكون في مقدوره أن يربط هذه اللوحات بتصور ملموس لانحرافات متعددة. ومع ذلك يمكن القول بأنه يؤول بدقة دلالة اللوحات.

ويظهر هذا التعارض كذلك بين الدلالة المجردة وحالة الوعي الملموسة عندما يتم إشراك شيء ملموس في التواصل. إن اللوحة الدائرية الحمراء المخططة بالأبيض التي تشير إلى الاتجاه الممنوع توضع عند مدخل زقاق ملموس؛ لها دلالة مجردة مادامت تصلح لأي طريق عمومي. لكنها موضوعة في مدخل هذا الطريق لتدل

على أنها متعلقة به. ليس في اللوحة نفسها أي إشارة إلى الزقاق. والعلامة مرتبطة، بكيفية عرفية فقط، بالطريق الذي توجد عند مدخله. يربط ذهننا إذًا دلالة مجردة بالتصور الملموس للطريق العمومي. الشيء نفسه يحصل عندما يضع مصنع «ميس» للخزف الصيني سيفين متقاطعين على كل شيء معروض للبيع، وعندما تلصق علامة «منتوج هش» على صندوق للبضائع، أو عندما نشير إلى أحد الأصدقاء بأن يأتي ليجلس على كرسي ملموس نعينه بالإصبع.

نلمس هنا ما يمكن تسميته بالوظيفة الإشارية (déictique). نقول مثلاً بأن اسم الإشارة «هذا» في جملة «هذا كتابي» يصلح لتعيين كتاب ملموس. ودلالة هذا الاسم مجردة مثل دلالة أي كلمة أخرى، لكننا نستعمله بحضور الشيء الملموس الذي نفكر فيه. كما أن أسماء الأعلام تكون إشارية عندما نقوم مسبقًا بتقديم الأشخاص بكيفية جيدة، أي إذا أعلنا بأن هذا الاسم مرتبط بهذا الشخص أو هذا الشيء الملموس.

لكن ينبغي أن نسجل أن الترابط ليس عديم التجانس مثلما قد يبدو لأول وهلة. فالسيمياء تتحقق بشكل ملموس؛ تكتب كلمة هش بطريقة ما، كما أن السيفين المتقاطعين لهما حجم معين ولون معين، إلخ. وندرك السيمياء من خلال هذا التحقق الملموس، نربط إذًا ما هو ملموس وما هو مجرد مميزين بينهما في آن واحد.

نقوم بالشيء نفسه فيما يخص التأويل: ندرك الدلالة (التجريد) ونجسدها لنربطها بالشيء الملموس المعني بالأمر. أما هذا الشيء نفسه فهو ملموس بالطبع، لكننا نلجأ هنا كذلك إلى التجريد: ندرك أن الشيء ينتمي إلى صنف معين: كتاب، بضاعة، زقاق، إلخ... ينتقل ذهننا إذًا من الملموس إلى المجرد ومن المجرد إلى الملموس. وهذا هو ما يسمح بوجود الإشارية (déixis) أو – بعبارة أخرى – تعيين الأشياء الملموسة بواسطة عناصر سيميائية، أي عناصر مجردة.

الفعل السيميائي هو، باختصار، سلوك ملموس غايته التعريف بحالة وعي ملموسة؛ لكن لا يوجد سلوكان متماهيان كما لا توجد حالتان متماهيتان من الوعي. داخل هذا التنوع اللا محدود لما هو ملموس، يدرك المتكلمون السيمياء التي تتكون من العناصر الوظيفية للسلوك المحسوس ومن العناصر المشتركة لحالات الوعي. وباختصار، نجمع في التواصل بين تجريدين؛ أليس تعريف الدلالة كونها مجردة؟؛ فالملموس لا يمكن توصيله والأنا يتعذر الإفصاح عنه.

ينتج عن ذلك أن موضوع السميولوجيا ليس الفعل السيميائي في حقيقته المادية، بل الجزء الوظيفي من هذا الفعل أي السيمياء، وعندما يكون السميولوجي أمام فعل سيميائي، عليه أن يبدأ باستنباط سيميائه. لنسجل بأن سيرورة التجريد هاته تتعلق بالفعل المحسوس مثلما تتعلق بحالة الوعي.

عندما تحدث جيلب وغولدشتاين عن الوظيفة المقولية (catégorielle) – أي مقدرة التجريد – لم يفكرا إلا في فعل نفسي وفردي. لكن التجريد الذي يهم السميولوجي ذو طابع اجتماعي: على السميولوجي أن يستخرج ما هو مشترك بين الأفراد الذين يتواصلون. وهذا هو ما يضع الحدود بين مجال عالم النفس ومجال السميولوجي، ومجال اللسانيات في النهاية.

من المستحيل أن نعرف بدقة ما يجري في ذهن الأفراد الذين يتواصلون فيما بينهم. لكن الاعتبارات المذكورة أعلاه تسمح بتقديم التصور التبسيطي التالي: إن الفرد الذي يريد إيصال ما نسميه – نظرًا لغياب لفظ آخر – حالة وعي، ليس في متناوله إلا السيمياءات، أي سلوكات مجردة توحي بتجريدات، بأجزاء من حالات الوعي؛ يختار الفرد إذًا السيمياء المطابقة لحالة وعيه ويجسدها على شكل فعل سيميائي. هذا السلوك المحسوس يدركه الفرد الذي يستهدفه التواصل، فيستخرج منه العناصر الوظيفية، ويتعرف على السيمياء، مما يعني أنه يتعرف على دلالتها. هكذا، يحاول أن يجسد هذه الدلالة، أي أن يعيد في ذهنه تكوين حالة الوعي المشابهة لحالة وعي الفرد الذي يتواصل معه.

يقتضي التواصل العادي معرفة التجريد والتجسيد[1]. لكن تجسيد الدلالة من طرف الفرد الذي يتلقى الإرسالية لا يتم أبدًا

(1) كان شارل بالي يسمي التجسيد بالتحيين، (B.S.L. de Paris, XXIII, p. 118).

بصورة تامة. وقد رأينا أعلاه من خلال مثال اللوحة الإشارية الموضوعة في المستودع، بأنه يمكن فهم الدلالة بشكل تام دون أن يرافقها التجسيد؛ ولقد بيَّن مثال الرواية المصورة أن الدلالة نفسها يمكن أن تولّد تجسيدات متنوعة، إذا قام لا ترابي ببعض الحركات ليوحي إلى لا ترابي آخر بأن القس جاء ليراقب العمل المنجز، لا يمكن لهذا اللاترابي الثاني أن يتصور بالضبط سلوك القس. وإذا قال لي ابني «وضعت طاولتي أمام نافذة الغرفة»، فإني أتصور جيدًا غرفته ونافذته وطاولته؛ لكنني لا أعرف المسافة الفاصلة بين الطاولة والنافذة ولا أي جانب من الطاولة موجه نحو النافذة. لا يمكن للتجسيد أن يكون تامًا إلا إذا كان الفرد شاهدًا على الأحداث التي يزعم نقلها الفعل السيميائي؛ لكن قلما يحدث هذا؛ ففي أغلب الأحيان يكون التجسيد غير تام. وهذا ما يفسر الصعوبات التي تعترض التواصل.

يدين كل المربين التعليم اللغوي الصرف للفيزياء أو الكيمياء؛ يريدون أن تُقَدم الظواهر المعنية بالأمر قبل وصفها لغويًا. ومنهج من هذا القبيل مستحيل عندما نتحدث عن ظواهر غير ملموسة. وهذا هو السبب الذي جعل بيرغسون في كتابه «دراسة عن المعطيات المباشرة للوعي» يعبر عن كل فكرة جديدة مرات متعددة بواسطة استعارات مختلفة: فمقارنة هذه الاستعارات بإمكانها تسهيل الفهم.

قلنا أعلاه أن الفعل السيميائي يتمثل في كونه يربط فعلاً ملموسًا بحالة وعي ملموسة؛ وهنا لابد من إضافة توضيح مهم يخص حالة الوعي. ذلك أن التواصل لا يتعلق دائمًا بأحداث ملموسة. مثلاً، عندما يكتب الرياضي 2 + 3 = 5 لا يفكر في الأحداث الملموسة، فهو ينسى أنه في المدرسة تعلم في البداية أن إضافة تفاحتين إلى ثلاث تفاحات تساوي خمس تفاحات وأن إضافة شجرتين إلى ثلاث شجرات تساوي خمس شجرات، إلخ، وبأنه عندما يقصي التفاحات والأشجار، يستطيع أن يشتغل على الأعداد؛ فالأعداد تجريدات. إن القاعدة الرياضية السابقة لا تقتضي إذًا من قارئها إقحام التفاحات والأشجار، إلخ، للعودة إلى الأحداث الملموسة.

والشيء نفسه يحصل عندما يقرر مرسوم وزاري استعمال لوحة إشارية واصفًا استعمالها، أي دلالتها؛ فالأمر لا يتعلق بالأماكن المحسوسة التي ستستعمل فيها هذه اللوحة. وكذلك الشأن بالنسبة للصياد عندما يقول لأحد المارة «لا تحدث الضجيج حتى لا يفزع السمك». فالأمر لا يخص سمك الشبوط (carpe) أو الكمه (tanche) أو التروتة (truite)، بل السمك بصورة عامة، أي التجريد.

ومع ذلك، من اللازم أن نضيف أن هذه الاعتبارات تخص المادة فقط: وفي هذا الميدان يمكن أن يغيب التجسيد. لكن كل مادة ترافقها صيغة، وهذه الأخيرة ينبغي أن تكون مجسدة. سواء تعلق

الأمر بإثبات أو أمر أو سؤال أو تمنٍّ فهو دائمًا علاقة اجتماعية بين أفراد ملموسين؛ فالصيغة ينبغي أن تكون مجسدة. وهذا يقودنا إلى خلاصة مفادها أن كل فعل سيميائي يقتضي دائمًا نوعًا من التجسيد.

لا ينبغي أن نخلط الطابع المجرد بالتعددية الوظيفية (polyvalence) الممكنة لسيمياء ما. إن قاعدة مثل 2 + 3 = 5 يمكن أن تصلح فقط لتعليم الروابط بين الأعداد؛ لكن قد تتدخل أيضًا في مشكل يخص القسمة؛ إنها متعددة الوظائف بمعنى أن دلالتها قد تختلف حسب الظروف التي استعملت فيها. هذه الظاهرة هي بالأحرى نادرة في السيميائيات غير اللغوية، لكنها كثيرة للغاية في اللغات، إن جملة مثل «لقد سقط من جديد هذا الصباح» تتغير دلالتها بحسب ما إذا جاءت بعد جملة «هل يسقط هذا الطفل كثيرًا من سريره؟» أو بعد جملة «سقط كثير من الثلج أمس». إن من يؤول سيمياء متعددة الدلالة يلزمه أن يقوم باختيار ضمن الدلالات الممكنة؛ ولذلك فهو يرجع إلى الظروف الاجتماعية أو السيميائية الصرفة التي استعملت فيها السيمياء. وهذه سيرورة مختلفة عن التجسيد، لكنها ترافقه وترتبط به بشكل كبير، إلى درجة أنه من الصعب أحيانًا فصل الواحد عن الآخر.

وينبغي أن نضيف أيضًا إلى هذا المؤلف تأثير التضمين (sous-entendu) الذي لاحظه اللسانيون منذ أمد بعيد... غالبًا ما يُزعم بأن سيمياءات مثل tel père, tel fils و! Au secours

و? pourquoi pas وentrée interdite و Nom de Dieu هي جمل غير تامة أي أنها جمل يوجد فيها شيء مضمر.

صحيح أنه في حالات كثيرة يمكن إضافة كلمة أو عدة كلمات من أجل الحصول على جملة كلاسيكية مكونة من مسند إليه ومن فعل ومن عناصر أخرى:

Sit el est le père, tel est le fils.

Pourquoi ne ferait-on pas cela ?

L'entrée par cette porte est interdite.

ولكن هذا مستحيل بالنسبة لـ ! Au secours قد يكون من باب الخطأ أن نقول ! Venez au secours de moi. أما بالنسبة لـ Nom de Dieu فلا نرى كيف يمكن تحويل هذه العبارة إلى جملة كلاسيكية.

سواء استطعنا أم لم نستطع تحويل هذه العبارات إلى جمل كلاسيكية، فهذا لا يؤثر في شيء من حيث إن الأفراد يتواصلون بواسطة عبارات من هذا القبيل، وإنه لمن المفيد تحليل كيفية تأويلهم لها.

والحال أنه لا شيء يدل على أن المستمع يضيف ذهنيًا كلمات إلى تلك التي سمعها؛ وعكس ذلك، من المحتمل جدًا أنه لا يفعل ذلك بسبب استحالته في بعض الحالات. كل ما يمكن قوله هو أن tel père, tel fils عبارة أقل تصريحًا من Sit el est le père, tel est le fils. لكن جملة «لقد سقط من جديد هذا الصباح» ليست هي

الأخرى أكثر تصريحًا، نحن في حاجة إلى ما سبق من كلام لمعرفة ما تدل عليه: كلمات il, en, tombé. لكنه في هذه الحالة لا نتحدث عن التضمين.

هكذا نرى أن تأويل سيمياء تأويلاً صحيحًا ينطوي على سيرورات متعددة؛ ولا شيء يدل على أنه ليس هناك أكثر من السيرورات الثلاث المذكورة هنا.

من المحتمل أن م. بريال كان يفكر في كل هذا عندما قارن بين عمل تأويل الكلام والعمل الذي نقوم به أمام لوحة فنية: «تعتقد أعيننا أنها تدرك تعارضات الضوء والظل على لوحة مضاءة مع ذلك بنفس النور، ترى أشياء بعيدة حيث كل شيء موجود على نفس المستوى. إذا اقتربنا بضع خطوات تنقطع كل الخطوط التي كنا نعتقد إدراكها، وتضيع، ونجد فقط بدل الصورة المضاءة إضاءات مختلفة، طبقات من الألوان المجمدة على اللوحة وجملة من النقط المضيئة التي تتتابع دون أن تتصل فيما بينها. لكن يكفي أن نعود إلى الوراء حتى تقوم أعيننا بمزج كل الألوان وتوزع الضوء وتربط ما بين الخطوط فتعيد تشكيل عمل الفنان متبعة في ذلك تقليدًا طويلاً»[1].

3- الكلام والخطاب واللسان:

لقد نتج عن الفرق بين الفعل السيميائي المحسوس والسيمياء المجردة ميلاد الأبجدية: فالحروف المكتوبة لا يمكنها تمثيل كل

(1) Mélanges de mythologie et de linguistique, Paris, 1868, p. 321.

صوت بكيفية محسوسة، وقراءة مخطوط لفرجيل لا تنبئ بشيء عن نطقه الشخصي.

تقوم الحروف بتمثيل ما يصلح في الصوت للتواصل: ما نسميه الفونيم. وقد عرّف تروبتسكوي الفونيم بأنه «مجموع الخصائص الوظيفية لصوت ما على المستوى الفونولوجي»[1]. وسنرى فيما بعد أنه لا يمكن تعريف الفونيم بهذا الشكل: فالصوت ليس معطى موضوعيًا؛ وعلى العكس، ينبغي معرفة الفونيم للتعرف على الصوت... صحيح أن من بين السمات الموجودة في الصوت تلك التي تؤدي الوظيفة التواصلية.

إذا كنا نقصد بالكلام ذلك المد الصوتي الخارج من فم المتكلم، فمن البديهي أنه يلزم إيجاد لفظ آخر لتعيين تتابع الفونيمات وكل العناصر الأخرى التي تسمح بالتواصل؛ وسنسميه «الخطاب».

وقد اقترح سوسير تمييزًا دقيقًا بين الكلام واللسان، وكان على صواب عندما قال أن اللسان نسق، بينما الكلام نشاط. لكنه جمع في مصطلح «الكلام» الشيئين اللذين ميزنا بينهما من قبل، فوصفهما كما يلي: «أولاً، التأليفات التي يستعمل بواسطتها الفرد المتكلم سنن اللسان، ثانيًا الآلية التي تسمح له بإخراج هذه التأليفات»[2]. في النقطة الأولى يصف بطريقته الخاصة ما سميناه هنا «الخطاب»؛ وفي النقطة الثانية يصف الكلام المحسوس.

(1) Traveaux du cercle linguistique de Prague, VII, 1939, p. 35.

(2) Cours, p. 31.

إن التمييز بين الفعل السيميائي والسيمياء – على المستوى اللغوي، بين الكلام والخطاب – ضروري؛ بسبب أن الواحد منهما لا يكون دور الآخر، على وجه التحديد. السيمياء هي الجزء الوظيفي من الفعل السيميائي، والفعل الملموس لا يكون فعلاً سيميائيًا إلا إذا كان تحققًا لسيمياء ما. وإلى حدٍ ما، يمكن أن نقارن الرابطة التي تجمع الفعل السيميائي بالسيمياء بالرابطة التي تجمع كل تجريد علمي بأساسه المحسوس: فعالم الحيوان الذي يريد وصف الحصان ومعارضته بالحمار وبالحمار الوحشي، يبدأ بدراسة الخيول المحسوسة والحمر والمحسوسة والحمر الوحشية المحسوسة.

لكن لا ينبغي أن نذهب إلى حد بعيد في المقارنة: ليس الحصان المحسوس تحققًا لحصان مجرد، بينما يحقق الفعل السيميائي السيمياء.

على سبيل المثال، إذا أردنا معرفة فونيم / S / في اللغة الفرنسية، ينبغي دراسة الكيفية التي يتلفظ بها عدد من الفرنسيين عددًا من الكلمات تحتوي على أصوات متعددة لـ S؛ ولمعرفة مدلول كلمة relation. يلزم دراسة حالات وعي مختلفة لفرنسيين مختلفين في اللحظة التي يستعملون فيها دال relation. وبعبارة أخرى، ينبغي أن يدرس اللساني الكلام حتى يستخرج منه الجانب الوظيفي، أي الخطاب.

أما غاية اللساني، فهي بالطبع إعادة بناء النسق الذي يخضع له الخطاب وبالتالي النسق الذي يخضع له الكلام أيضًا. وهذا النسق هو ما نسميه اللسان. يفعل اللساني، بكيفية علمية، العمل الذي

يقوم به الطفل بطريقة تجريبية عندما يتعلم لغته الأم... اللسان علم ينبغي تعلمه كما يقول ذلك غاردينر[1].

لكي يتعلم الطفل لغته الأم، يبدأ بإعادة الجمل التي سمعها ويستخرج القواعد المكونة للنسق عن طريق المقارنة. ولن يتبادر إلى ذهن أحد أن يُعلِّم النحو إلى طفل في بادئ الأمر: يُكتسب اللسان بواسطة الخطاب. ويعرف اللساني أكثر من غيره آخر أن القاعدة تستنبط من أمثلة عديدة أي من سيمياءات لغوية متعددة.

نعرف التعارض الذي يقيمه سوسير بقوله:

«لكل هذه الأسباب، قد يكون من المستحيل الجمع بين اللسان والكلام في وجهة نظر واحدة؛ فلا يمكن معرفة الكل الشامل الذي تمثله اللغة، بينما يوضح التمييز والترتيب المقترحان كل شيء...

«هذا هو أول مفترق للطريق نصادفه عندما نريد أن نكوِّن نظرية اللغة. ينبغي الاختيار بين سبيلين يستحيل اتخاذهما في آن واحد؛ ويجب اتباعهما بصورة منفصلة.

«على أقل تقدير، يمكن أن نحتفظ بتسمية اللسانيات لكل من هذين الميدانين فنتحدث عن لسانيات الكلام، لكن لا ينبغي خلطها باللسانيات الصرفة، تلك التي يكون موضوعها الوحيد هو اللسان.

(1) A theory of speech and language. 1932, p. 62.

سنتمسك بهذه الأخيرة فقط، وإذا حدث أن استعرنا خلال التوضيح بعض الإشراقات من دراسة الكلام، سنجِد أن لا نمحي أبدًا الحدود الفاصلة بين هذين المجالين»[1].

إن استعمال الاستعارات في العلم هو دائمًا أمر خطير. يتحدث سوسير هنا عن طريقين يفترقان ولا يمكن اتباعهما في آن واحد؛ لكنه يعترف بضرورة اقتباس بعض الإشراقات من دراسة الكلام. هو إذًا يتبع طريقين في الوقت نفسه.

لا يمكن أن يكون الأمر عكس ذلك. يجد اللساني نفسه دائمًا أمام ظواهر محسوسة فيدرسها ليعثر فيها، بواسطة التجريد، على ما هو وظيفي: الخطاب هو الجزء الوظيفي من الكلام. ونتساءل بالتالي عما إذا كانت لسانيات الكلام ممكنة.

تدرس الفونتيكا الظواهر الفيزيولوجية والسمعية المتدخلة في التواصل؛ لكنها لا تقتصر على وجهة نظر عالم السمعيات (acousticien) أو عالم الفيزيولوجيا. إنها تقارن طريقة كلام مختلف الأفراد انطلاقًا من المعايير الوظيفية للتواصل. على سبيل المثال، ستقارن نطق هذا الفونيم عند مختلف الأفراد؛ والحال أن مفهوم الفونيم هذا لا تتوفر عليه بكيفية موضوعية؛ حيث يأتيها من اللسان بصفته ظاهرة اجتماعية. إن دراسة سمعية صرفة للنطق قد لا يكون لها أي صلة بما هو لساني.

(1) Cours, pp. 39-40.

وفيما يخص الجانب الآخر للكلام أي حالة الوعي، من المستحيل ملاحظتها في حالتها المحسوسة. ولكن لنفترض لحظة واحدة أننا قادرون على ذلك: لن يكون لوصف الظواهر النفسية أي بعد لساني. ولكي يصبح هذا الوصف لسانيًا، ينبغي أن نقارن بين الأفراد وأن ننظر فيما هو مشترك بين حياتهم النفسية عندما يستعملون الوسائل التواصلية نفسها، أي ينبغي اللجوء إلى التجريد.

ليس من الممكن إذًا معارضة لسانيات الكلام بلسانيات اللسان؛ فبين الكلام واللسان هناك الخطاب الذي يربط بينهما. ليس ثمة إلا لسانيات واحدة، والباقي ليس سوى علم النفس أو الفيزيولوجيا أو علم السمعيات.

الفصل الثالث

3

تصنيف السيميائيات

1- وجهة النظر الحواسية:

يعتبر ب. جاني P. Janet أن الناس «يتواصلون فيما بينهم بواسطة الجسد»[1]؛ وإن شئنا الدقة قلنا بأنهم يتواصلون بواسطة حواسهم. أمامنا إذًا خمسة سبل ممكنة؛ سمعية وبصرية ولمسية وذوقية وشمية. على سبيل المثال، يمكن أن تتفق امرأة مع أخرى بأنها إذا تعطرت بماء الكولونية، سيعني هذا بأنها نجحت، بينما إذا تعطرت بماء الخزامى فسيعني ذلك بأنها رسبت.

وعندما تمتنع سيدة عن وضع السكر في شايك يمكنها بذلك أن تنبهك بأنه ينبغي الحذر من أحد الأفراد في الاجتماع. وهناك السيميائية اللمسية مثل كتابة برايل وحركات الأصابع التي تسمح

(1) Traité élémentaire de philosophie, Paris, 1923, p. 218.

للعمي والصم – البكم بالتواصل؛ وحالة هيلين كيلير معروفة جدًا. ويمثل الخطاب السيميائية السمعية بامتياز، لكن هناك أيضًا نفخ الأبواق وصفير وقوع الأجراس وصفارات الإنذار والتصفيق وصياح الجمهور وصفيره في المسرح. أما السيميائيات البصرية فهي كثيرة: رموز الرياضيين والكيميائيين والمناطقة والإشارات المستعملة في السكة الحديدية وفي الطريق والشاطئ وحركات اللاترابيين ورموز الكتب السياحية ومنشورات (guides) السكة الحديدية والبواخر والطائرات وعلامات التصنيع واللافتات التجارية والشارات.

في غالب الأحيان لا نستعمل السيمياءات الشمية أو الذوقية أبدًا؛ لسبب بديهي هو أنه ينبغي أن يكون في متناولنا عدد من المواد التي تعطي إما روائح مختلفة وإما أذواقًا مختلفة، بينما يتحقق عدد من

السيمياءات اللمسية والبصرية والسمعية دونما الحاجة إلى أية مادة. غير أن مشكلة السيمياءات اللمسية تكمن في أنها تقتضي الاتصال الشخصي، بينما يمكن إدراك السيمياءات البصرية والسمعية عن بعد.

ومشكلة السيمياءات البصرية هي أن الظلام يمنع استعمالها. لكن بعضًا منها له منفعة كبرى؛ فإذا كانت هذه السيمياءات مكتوبة، فإنها تحافظ على نفسها عبر الزمن؛ فلوحة الطريق الإشارية مثلاً، يمكن أن تبقى لسنوات في الموضع نفسه مؤدية دورها خلال هذه المدة. ويمكن أن تصلح الكتابة أيضًا للتواصل مع مخاطب في عصر آخر، إضافة إلى كونها صالحة للتواصل عن بعد بفضل البريد.

تُمكن السيمياءات السمعية من التواصل عبر مسافات بعيدة للغاية؛ وبفضل التسجيل تُمكن من التواصل عبر الزمن. لكن من البديهي أن ما يبقى عبر الزمن ليس شيئًا صوتيًا، بل هو تسجيل فقط.

تظهر فائدة السيميائيات السمعية عندما نريد الشروع في التواصل. إذا أدار الشخصُ الذي نريد أن نبلغه بشيء ما ظهره، فلا فائدة من القيام بحركات لإثارة انتباهه، وينبغي أن يكون قريبًا منا جدًا حتى نستطيع لمسه. لكن الصوت أو أي سيمياء سمعية ستجعله يدير ظهره؛ فالضجيج يخترق الأسوار ويوقظ النائم. إنها تجربة يقوم بها الرضيع في سن مبكرة جدًا، حيث يلاحظ أن حركاته لا تقرب إليه أمه، لكن صيحاته تجعلها تأتي من الغرفة المجاورة. ومن المحتمل أن السبب الرئيسي في أن الإنسان يتواصل بالكلام أكثر من الحركات يكمن هنا.

ينبغي أن نضيف بأنه داخل السيميائيات السمعية، ينتمي الكلام إلى المجموعة التي لا تتطلب استعمال أية أداة مثل الصفارة أو البوق (clairon). نستطيع التواصل بالتصفير بواسطة الفم أو بالتصفيق باليدين أو الرجلين، لكن لا يبدو أن هذه الوسائل تسمح بإنتاج سيمياءات لها من التنوع ما للكلام. هكذا يظهر أن الكلام هو السيميائية الأكثر نفعًا.

وطبيعي أننا عندما نتكلم عن سيمياء سمعية، فإننا لا نصفها وصفًا كاملاً؛ فاستعمال هذه الصفة يشير فقط إلى الحاسة التي يقع الإدراك من خلالها، إذ ليست هذه السيمياء سمعية صرفة إلا بالنسبة للكائن الذي لم يحاول أبدًا أن يقلدها، مثلاً، الكلب الذي يفهم بعض أقوالنا لا يسعى إلى تقليدها ولا يعرف، بالتالي، الظواهر المحركة التي تساعدنا على الكلام. أما بالنسبة للإنسان العادي، فسيمياءات الخطاب هي حركية وسمعية بالقدر نفسه. كما أن حركات اللاترابيين بصرية وحركية. لكن توجد سيمياءات كثيرة ينفصل طابعها الحركي عن طابعها الحسي: فسائق السيارة الذي يرى لوحة إشارية ليس مطالبًا بإنتاج مثل هذه اللوحة؛ والشخص الذي ينتج هذه اللوحة قد لا يكون مطالبًا أبدًا بتأويلها؛ والشيء نفسه صحيح بالنسبة لرنات الأجراس وإشارات السكة الحديدية، إلخ...

2- وجهة النظر الدلالية:

تميز وجهة النظر المرتكزة على الحواس بين سيميائيتين لهما روابط وثيقة هما الخطاب والكتابة. ذلك أن الكتابة تُحوِّل السيميائية

السمعية التي هي الخطاب إلى سيميائية بصرية تستفيد تقزيبًا من كل إتقان السيميائية السمعية وتسمح بالتواصل في ظروف يكون فيها الكلام مستحيلاً.

لا يمكن للخطاب أن يشتغل إلا إذا كان الأفراد متقاربين في المكان والزمان؛ وإذا غاب أحد هذين الشرطين يصبح الخطاب غير نافع إلا إذا كنا نتوفر على الهاتف أو على شريط مغناطيسي. تسمح الكتابة بتحرير وصية ستقرأ بعد وفاة صاحبها وتسمح للمشرّع بالتواصل مع مَن سيعيشون من بعده.

لا تقيم الكتابة علاقة مباشرة بين السيمياء والإرسالية: عندما نقرأ الكتابة، نُحل محل الحروف فونيمات الخطاب، وبواسطتها نصل إلى الدلالة. إذًا، ينبغي أن نعتبر الكتابة سيميائية تعويضية، والخطاب سيميائية مباشرة.

لهذا التعارض طابع دلالي: الدال الذي هو الكتابة له مدلول هو فونيمات الخطاب، أي دوال سيميائية أخرى؛ وهذه الدوال لوحدها لها كمدلول هذا الجزء من حالة الوعي التي هي موضوع الإرسالية. إذًا تتحدد سيمياء تعويضية ما بأنها سيمياء تتكون دلالتها من دوال سيميائية أخرى؛ وتتحدد السيمياء المباشرة بأنها تلك التي تتكون دلالتها من محتوى الإرسالية.

ليست الكتابة السيميائية التعويضية الوحيدة للخطاب. يؤدي استعمال الطبل في النبرتين عند البانتو(*) إلى تحويل بعض جمل لغتهم

(*) البانتو مجموعة من الشعوب الأفريقية تعيش بين الكاميرون وكينيا وتتكلم لغات متقاربة تسمى البانتو (المترجم).

إلى سيمياءات سمعية تصل بعيدًا جدًا؛ فتنغيمات الطبل تستنسخ التنغيمات الموسيقية للجملة. والمستمعون ينجحون في إعادة تكوين الجمل، وبالتالي يفهمون الإرسالية. ويمارس في المكسيك عند المازاتيك التعويض نفسه بواسطة الصفير.

وثمة سنن تلغرافي يستعمل في التجارة الدولية لتقليص طول التلغرامات؛ وبمقتضى هذا السنن، تعوض جملة أو جزء منها بكلمة يتم اختيارها اعتباطًا. وسبب وجود هذا السنن هو كذلك تحول في الروابط الاجتماعية، ذلك أن التواصل بالتلغراف يقتضي تدخل مستخدمين ينبغي تسديد رواتبهم، ومن المستحب أن تكون تكلفتهم أقل ما يمكن.

وقد كانت سنن المورس (morse) في الأصل سيميائية سمعية: حيث كان على المستخدم أن يسمع الارتجاجات. كانت تحل محل حروف الأبجدية تأليفات مكونة من ارتجاجات طويلة وقصيرة. كان المورس إذًا سيميائية تعويضية من الدرجة الثانية؛ كانت تنطلق من الكتابة التي هي قبلاً تعويضية. وعندما تخيل أديسون تسجيل الارتجاجات على شريط ورقي، ظهر تعويض ثالث: أصبحت السيميائية بصرية. وإذا حُرّر التليغرام بحسب سنن التجارة الدولية، سنكون إزاء تعويض رابع.

إن كتابة براي هي أيضًا سيميائية تعويضية من الدرجة الثانية، فهي تحول السيميائية البصرية للكتابة إلى سيميائية لمسية. والكتابة المرموزة (cryptographie) سَنن يشبه سنن التجارة، إلا أنه سري ويمكنه أن يصبح تعويضيًا بكل الدرجات التي ترتضيها.

وقد سعى البعض إلى أن يعتمد الصم – البكم أبجدية، وهي سيميائية تعويضية مرتكزة على الكتابة. لكن هذه الأبجدية، لم تلقَ النجاح. وفي الغالب يستعمل الصم البكم حركات تكوّن سيميائية مباشرة مثلما هو الشأن عند اللاترابيين. ويظهر الطابع المباشر للسيميائية اللاترابية في كون لاترابيي العالم بأجمعه يتفاهمون من خلال حركاتهم؛ فليس ضروريًا معرفة اللغة الأم لمن يقوم بالحركات، وعلى النقيض من ذلك لكي نفهم أية كتابة أبجدية من اللازم معرفة لغة مَن يكتب.

وللكتابة الصينية طابع هجين، توحي كثير من العلامات مباشرة بجزء من الإرسالية، مما يسمح لكل الصينيين أن يتراسلوا بواسطة الكتابة. وعندما يتكلم صيني من الشمال مع صيني من الجنوب، فإنهما يتفاهمان بمشقة كبيرة أو لا يتفاهمان البتة. وعلى العكس، من الممكن تقريبًا لرجل لا يعرف اللغة الصينية أن يفهم نصًا مكتوبًا. لكن يبقى أن عددًا مهمًّا من العلامات يرتكز على النطق: مثلاً، يُمثل الباب، الذي يسمى men بعلامة نتعرف فيها على باب معين؛ لكن تستعمل العلامة نفسها مؤتلفة مع علامة أخرى بالنسبة للاحقة الجمع في أفعال المطاوعة؛ هكذا يتم الارتكاز على التجانس الصوتي أي على إجراء صوتي يقتضي معرفة اللغة الصينية.

من وجهة النظر الدلالية، هناك ثلاثة أنواع من الكتابة:

1) الكتابات المعجمية التي تصور وحداتها الوحدات المعجمية للخطاب.

2) الكتابات المقطعية التي تصور وحداتها مقاطع الخطاب.

3) الكتابات الأبجدية التي تصور وحداتها فونيمات الخطاب.

لكن ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار بعض الاستثناءات أو الفوارق. رأينا أعلاه أن المقطع الصيني men لا تمثله دائمًا العلامة نفسها. في الفرنسية يتكون كل من pôle (قطب) و paule (اسم علم) من الفونيمات نفسها، لكن كلمة résident تتكون من فونيمات مختلفة بحسب ما إذا كانت هذه الكلمة مسبوقة بـ le أو بـ ils. وغالبًا ما تحتوي الكتابات المسماة بالأبجدية على علامات ليست أبجدية هي علامات الترقيم وحرف البداية(*)؛ كما تُطبع بعض الكلمات مائلة ويسطر عليها في الكتابة اليدوية (manuscrite). إن الفرق الغرافي بين pôle و paule يطابقه اختلاف معجمي؛ والشيء نفسه صحيح فيما يخص الفرق بين a و à وبين du و dû.

لكي نعتبر حروفًا غرافية بأنها كتابة، أي سيميائية تعويضية للخطاب بالمعنى الضيق، ينبغي ويكفي أن تنتمي إلى صنف من الأصناف المذكورة أعلاه. وليس هذا شأن الرسوم التي تستعملها بعض الأقوام البدائية التي تشبه قصصنا المصورة بدون كلام: فلكي نفهمها ليس من الضروري معرفة لغة من رسمها. ليس هذا كذلك شأن الحركات التي يستعملها بعض الهنود الحمر للتواصل مع قبائل تتكلم لغة أخرى(1).

(*) Majuscule هو ما نترجمه هنا بحرف البداية.

(1) R. Thevenin et P. Coze, Moeurs et histories des peaux-rouges, Paris, 1929, p. 305.

ليس الخطاب السيميائية المباشرة الوحيدة التي أنتجت سيميائيات تعويضية؛ فرنات الأبواق والأجراس يتم تمثيلها بكيفية مكتوبة (غرافية). وتتكون مدلولات هذه «الكتابات» (graphies) من دوال الرنات. إذا رأينا مكتوبًا 5/ 3، وقلنا «ثلاثة أخماس» أو «ثلاثة مقسومة على خمسة»، فإننا نترجم هذه القاعدة الرياضية إلى العربية. ولكن إذا قلنا «ثلاثة على خمسة»، فإننا نسمي بالتتابع كل علامة على حدة، وما نقوله لن يكون له معنى إلا إذا رجعنا إلى القاعدة الرياضية؛ لأن ثلاثة على خمسة تعني في العربية ثلاثة أفراد من بين مجموعة تتكون من خمسة. كما أن 4^2 تترجم إلى العربية بـ «أربعة مضروبة في أربعة»، وإذا قرأناها أربعة أس exposant اثنين فإننا نلجأ إلى سيميائية تعويضية للسيميائية الرياضية. كما يمكن كذلك قراءة التدوين الغرافي لرنة البوق التالية: sol do mi sol، ويتعلق الأمر هنا بسيميائية تعويضية من الدرجة الثانية.

ينبغي أن نحترز من إدخال كل سيميائية ليست خطابًا ضمن السيميائيات التعويضية، بحجة أنه يمكن ترجمة أي سيميائية غير لسانية إلى الخطاب[1]. إن الرموز الغرافية للرياضيين والمناطقة والكيميائيين لا تمثل وحدات لسانية: إذا وجدنا على الطريق ورقة يحتمل أن يدًا مجهولة رسمت عليها هذه العلامات، فسيكون من المستحيل اكتشاف اللغة الأم لصاحبها، ومع ذلك ستكون دلالتها واضحة.

(1) هذا ما فعله إ. سابير في: Language, New-York, 1921, pp. 20-21.

والشيء نفسه صحيح بالنسبة لحركات اللاترابيين وحركات هنود أمريكا الذين انتهينا من الحديث عنهم. يمكننا أن نترجم من الانجليزية إلى الفرنسية، وهذا لا يدل على أن الانجليزية سيميائية تعويضية للفرنسية. صحيح أننا نستعمل الخطاب لتدريس السيميائيات الأخرى: فالنص القانوني يعرّف بدلالة كل لوحات الطريق الإشارية. لكن قد لا يكون من المستحيل تعلم هذه السيميائيات بواسطة الطريقة التي استعملناها لتعلم لغتنا الأم.

3- وجهة النظر الاقتصادية:

إن عدد السيمياءات المجموعة في سيميائية واحدة متنوع جدًا. يصفق جمهور المسرح ويضرب الأرض برجليه ويصرخ ويصفر ويقذف بالشظايا ويهدي الزهور، وهذا تقريبًا كل ما يفعله. تكون حاجات التواصل في ظروف مثل هاته محدودة، وإذا أراد الجمهور إيصال دلالات أكثر عددًا يلزمه اللجوء إلى وسائل كثيرة؛ لكن ليس من المؤكد أنه سيجدها. هكذا نرى، في السيميائيات التي عليها أن تستجيب لحاجات جد متنوعة، ظهور تنظيم اقتصادي، والحالة الأكثر إثارة هي العد المكتوب. فبواسطة عشرة أعداد، يمكن عن طريق اتباع بعض القواعد تمثيل الأعداد إلى ما لا نهاية.

تخضع الإشارات الطرقية أيضًا إلى قاعدة الاقتصاد. ونظرًا إلى أن سائق السيارة يمر بسرعة ويسير في الليل كما في النهار، كان من اللازم اللجوء إلى وسائل قليلة العدد ليكون التمييز بينها سهلاً: فقد تم الاقتصار على خمسة ألوان (الأسود والأبيض والأحمر

ونوعان للأزرق) وعلى أربعة أشكال (الدائري والمستطيل والمثلث في وضعين). لكن تم تعويض هذا التحديد (أو الحصر)، بحيث إن أي واحد من هذه العناصر له دلالة خاصة به في اللوحات. يشير الدائري إلى الأمر، فإذا كان أحمر دل على المنع، وإذا كان أزرق دل على الإلزام. هكذا نرى ظهور تمفصل داخلي للسيمياء: كل عنصر من العناصر المكونة للسيمياء يلعب دورًا في الدلالة الإجمالية للسيمياء.

إن مصطلح «علامة» مناسب للإشارة إلى أي جانب شكلي من السيمياء يرتبط به جانب من الدلالة. تسمح علامة ما بمعارضة سيميائين متماثلتين من جهة أولى، ويمكنها أن تكون مشتركة بين سيميائين مختلفتين من جهة ثانية. وهنا يكمن الطابع الاقتصادي للتمفصل، فبواسطة عدد معين من العلامات، يمكن تكوين عدد أكبر من السيمياءات.

تتمفصل كثير من السيميائيات بهذه الكيفية. يمكن أن تتكون رنة البوق من وحدات تتعلق، على التتالي، بالفيلق والكتيبة والسرية، إلخ، وبأمر ما في نهاية المطاف. تجمع معادلة رياضية بين الأرقام والحروف وعلامات الربط إلخ... ويسمى وصف التمفصل بالسَّنن: يتضمن هذا الأخير لائحة العلامات وكيفية التأليف بينها؛ وبالنسبة للغات نميز المفردات والنحو.

عندما نقول بأن الإنسان يستعمل لغة متمفصلة، نفكر أساسًا في كون السيمياءات اللسانية تتجزأ إلى وحدات دالة؛ على سبيل المثال، نجد في جملة «أبي مريض» الوحدة نفسها التي نجدها في جملة

«هل تحدثت عن ذلك لأبيك». في كلتا الجملتين، تؤدي الوحدة «أب» الوظيفة نفسها بالنسبة لدلالة السيمياء كلها. وبواسطة عدد محدود من وحدات مثل هذه، يمكن بناء أعداد هائلة من السيمياءات.

تبين الاعتبارات المذكورة أعلاه أنه ينبغي التمييز بين سيميائيات متمفصلة وسيميائيات غير متمفصلة. عندما نهز كتفينا لنقصد بذلك عدم علمنا بشيء، أو عندما نشير إلى أحد كي يقترب فإننا نستعمل حركات يستحيل تجزيئها إلى وحدات أصغر ترتبط كل واحدة منها بجزء من الإرسالية. كما أن اللافتات التجارية وعلامات التصنيع ليس بها عادة أي تمفصل.

بطبيعة الحال، يمكن أن تكون السيميائيات متمفصلة حسب درجات متفاوتة. عندما يصفق الجمهور لا يمكنه أن يغير إلا مدة أو شدة تصفيقاته؛ الشيء نفسه يمكن قوله في حالة ما إذا كان يصرخ.

من الأفيد أن نلاحظ أنه قد توجد مستويات متعددة للتمفصل. عندما يتكلم رجل لمدة طويلة، يقسم خطابه إلى وحدات نموذجها هو الجملة، وتتجزأ هذه الوحدات بدورها إلى علامات نموذجها هو الكلمة. إن تمفصل الخطاب هو أكثر تعقيدًا من هذا، وسنرى ذلك لاحقًا. لكن تكفي هذه المستويات الثلاثة مؤقتًا.

ويتكون الاستنباط الرياضي، بغض الطرف عن الجمل التي تكون فيه غالبًا، من مجموعة من المعادلات شبيهة بالجمل؛ وتتكون هذه المعادلات من علامات شبيهة بالكلمات. كما أن إرسالية

بالحركات اللاترابية يمكنها أن تتضمن تقسيمات مطابقة للجمل وعلامات مطابقة للكلمات.

لكن إشارات الطريق ليس لها بالضبط الطابع نفسه: فقد نجد أحيانًا عدة لوحات في الموضع نفسه، لكن الواحدة منها لا تكمل الأخرى كما هو الحال بالنسبة لجمل الخطاب الواحد: هنا كل لوحة تكوّن خطابًا كاملاً؛ وعلى النقيض من ذلك، تتكون اللوحة من علامات شبيهة بالكلمات.

تشترك الإشارات الطرقية مع الخطاب في كونها تستعمل علامات خاصة للتمييز بين الصيغ: تعني الدائرة الأمر ويعني الأحمر المنع، والأزرق الإلزام والمثلث التنبيه. في الخطاب ترتبط هذه الوظيفة عادة بالتنغيم، لكن هذا لا يحصل دائمًا وليس من اختصاص التنغيم وحده. لا يوجد هذا التمفصل في السيميائيات الرياضية أو المنطقية، ولا في قرع الأجراس أو النفخ في الأبواق؛ لكنه يوجد في حركات اللاترابيين.

يتعلق الأمر، في مختلف مستويات التمفصل التي تحدثنا عنها الآن، بتمفصل تام في كل مرة: حيث يتطابق التمفصل الشكلي مع تمفصل في الدلالة، وحيث تحافظ كل علامة على وظيفتها في مختلف السيمياءات التي تظهر فيها. لكن بعض السيميائيات تعرف تمفصلاً شكليًا صرفًا. وهذا هو شأن الخطاب: تتكون كلمة مثل (pelle) = مجرفة من ثلاثة أجزاء هي / P/ و / L/ و / /. تسمى فونيمات ولا يرتبط أي مدلول بكل واحدة من هذه الوحدات الثلاث. وإذا غيرنا من ترتيبها سنحصل على كلمة أخرى plait.

تضم اللغات ما يقرب من ثلاثين فونيمًا، ويسمح التأليف بين الفونيمات بتكوين عدد هائل من الكلمات المختلفة. هنا نجد شكلاً آخر من أشكال الاقتصاد.

لكن هذا التمفصل الشكلي المحض ليس خاصًا بالخطاب وحده. تتكون رنات البوق من تأليفات متنوعة لبعض النوتات التي ليست لها أي وظيفة بالنسبة لدلالة السيمياءات إن نظرنا إليها بصورة منفردة (منعزلة). والشيء نفسه صحيح فيما يخص رنات الأجراس.

لا نجد في إشارات الطريق سوى عنصرين لا يقابلهما أي جانب دلالي هما الأسود والأبيض، ويصلح هذان اللونان لخلق التضاد فقط. إن العلم الهولندي أزرق – أبيض – أحمر يشبه العلم الفرنسي، لكن الخطوط فيه أفقية عوض أن تكون عمودية؛ فاختيار الألوان وترتيبها وسيلة شكلية صرفة لتمييز الأعلام بعضها عن بعض، والكل وحده هو الذي له دلالة ما.

تعرف بعض السيميائيات التعويضية، هي الأخرى، تمفصلاً شكليًا؛ فالكتابتان المسمارية والأوغامية (ogamique)(*) تستعملان عددًا صغيرًا من العلامات التي ليست لها أية دلالة إن نظرنا إليها بصورة منفردة. وتقوم أبجدية المورس بالجمع بين نقط وخطوط لها وظيفة شكلية صرفة.

(*) ظهرت الكتابة الأوغامية في أيرلنده وبلاد الغال بين القرنين الخامس والسابع الميلادي (المترجم).

وقد تجاوز الخطاب كل السيميائيات الأخرى في الاقتصاد الشكلي عندما كوّن فونيماته بواسطة ما يسمى السمات؛ فعلى سبيل المثال، تشترك الفونيمات / b/ و / d/ و / g/ و / v/ و / z/ إضافة إلى فونيمات أخرى، في ارتجاج الوترين الصوتيين، وهذه السمة لا نجدها في / P/ و / T/ و / k/ و / f/ و / S/ وتشترك الفونيمات / p/ و / b/ و / m/ في انسداد الشفتين؛ ويشترك الفونيمان / m/ و / n/ - إضافة إلى اهتزاز الحبلين الصوتيين - في انفتاح غشاء الحنك (voile du palais).

إن تمفصل الكلمة إلى فونيمات، مثل تمفصل الجملة إلى كلمات، له شكل تقطيعي (segmentaire)، بحيث تتتابع الوحدات التمفصلية في الزمن. لكن ليس كل تمفصل لساني تقطيعيًا: يمكن مقارنة التنغيم بخط يسير متوازيًا مع خط الفونيمات؛ ووجود هذين الخطين المتزامنين يشكل تمفصلاً طوليًا (longitudinal).

كما أن تمفصل الفونيمات إلى سمات طولي كذلك، بصورة عامة على الأقل. فسمات فونيم معين متواقتة في غالب الأحيان.

في الكتابة، تعوِّض العلاقات الزمنية بين الوحدات بعلاقات مكانية، ومثل هذه العلاقات المكانية نجدها بين الوحدات المشكلة للوحات الطريق الإشارية أو بين الخطوط والنجوم الدالة على رتب الضباط.

عندما تكون سيمياء ما متمفصلة، تتوقف دلالتها على عاملين؛ اختيار الوحدات المكونة لها والعلاقات بين هذه الوحدات. في

الرياضيات، لا تعني 34 الشيء نفسه الذي تعنيه 43؛ وفي العربية «يرى زيد محمدًا» ليس لها الدلالة نفسها كما في «يرى محمد زيدًا». كما أن كلمة «ضيف» ليست هي «فيض»، مع أنها تحتوي على الفونيمات نفسها(*)، إذ تخضع كل سيميائية متمفصلة إلى قواعد فيما يخص اختيار الوحدات وكيفية التأليف بينها. عندما يتعلق الأمر بتمفصل كامل، تميز المفردات والنحو. وبالنسبة للتمفصل الشكلي المحض، نجد قائمة الوحدات وتوزيعها، ويسمى المجموع بالنظام أو السنن.

ليس من الضروري أن يكون الفرد على علم بكل سنن أو نظام السيميائية التي يستعملها. لقد تعلمنا جميعًا في المدرسة مبادئ الرياضيات، لكن الأفراد الذين يعرفون سنن الرياضيات معرفة حقة قليلون.

لا يتعلم اللاترابيون سوى الحركات التي هم في حاجة إليها داخل الدير؛ حينما يصنع اللاترابيون الجعة، يعرفون بطبيعة الحال كل الحركات المرتبطة بصنع الجعة، لكنهم لا يتعلمون تلك التي ترتبط بالفلاحة أو التجليد التي سيتعلمها اللاترابيون المنتمون إلى دير آخر يتعاطون فيه الفلاحة والتجليد.

والشيء نفسه صحيح بالنسبة للغات، يعرف كل واحد منا المصطلحات الخاصة بحرفته وبالأشياء التي تهمه، لكنه يهمل

(*) سقنا هذه الأمثلة بالعربية لتُقابل نظيرتها التي وردت بالفرنسية (المترجم).

الباقي. تضم اللغة الفرنسية أزيد من مائتي ألف كلمة مختلفة ويعرف منها الرجل المتفوق حوالي خمسين ألف، لكنه لا يستعمل كل هذا القدر؛ وقد لا يستعمل كاتب كبير سوى عشرة آلاف كلمة في أعماله.

لقد أثار سوسير الانتباه إلى أحد مظاهر النظام اللغوي قائلاً: «ليس في اللسان إلا الاختلافات بدون أطراف إيجابية» (ص 172) ثم أضاف: «في اللسان كما في أي نسق سيميولوجي، ما تتميز به علامة ما هو كل ما يكونه» (ص 174). هكذا يظهر النسق على أنه شبكة من التعارضات بين الوحدات. وقد سميت هذه الشبكة بالبنية، حيث تولدت عنها فكرة اللسانيات البنيوية؛ وهنا ينبغي أن نميز بين أمرين.

إن اللغة قابلة للتعلم؛ فهي معرفة. وكل وحدة منها هي موضوع للمعرفة. نحن هنا إزاء قضية إبيستمولوجية. والطفل الذي لا يعرف من بين الطيور، إلا البط (canards) السابح في البحيرة التي يتجول على ضفتها، سيسمي بطة كل طائر آخر سيراه لاحقًا. لن تستطيع القول بأنه يعرف البط حقيقة إلا في اليوم الذي سيعارض فيه مثلاً الحمام أو الدجاج بالبط. وكما لاحظ ذلك جورج مونان[1]، سيبدأ أحد أطفال المدينة بإطلاق اسم قمح على كل الحبوب التي يراها، ولن يميزها عن الخرطال والشعير إلا شيئًا

(1) Les problèmes théoriques de la traduction, Paris, Gallimard, 1963, pp. 24-25.

فشيئًا إلخ... والفونيمات هي أيضًا مواضيع للمعرفة، وحدات تعارض بعضها بالبعض الآخر. لكن قلما تهم هذه القضية الإبيستمولوجية اللسانية: قد يصبح نشاطه ضيقًا إن هو قصره على معرفة الوحدات اللغوية من خلال تعارضها.

من جهة أخرى، ليست الأمور بسيطة إلى هذا الحد. نستطيع إلى حدٍ ما أن نقبل بأن كل الأفراد الذين يتكلمون لغة ما يستعملون عدد الفونيمات نفسها والكيفية نفسها؛ أما المعارف النحوية فهي، قبلاً، أقل توحدًا، وعندما ننظر في المفردات المعجمية، نجد اختلافات مهمة بين الأفراد: فمن المستحيل الحديث عن نسق معجمي للسان.

لكن التصور السوسيري للنسق يصبح مهمًّا عندما يتعلق الأمر بالروابط بين دوال الكلمات والأشياء التي نتحدث عنها.

في السيميائيات الأخرى غير الألسنة، كل تعارض بين العلامات يقابله تعارض بين الأشياء التي نتحدث عنها، كل علامة هي بشكلٍ ما بطاقة مقرونة بشيء أو بفعل. لكن الأمر على خلاف ذلك في اللغات: «داخل اللغة نفسها، كل الكلمات المعبرة عن أفكار متقاربة تحدد بعضها البعض بكيفية متبادلة: ليس لمترادفات مثل خشي redouter وخاف craindre ووجل avoir peur من قيمة خاصة إلا بتعارضها. لو أن Redouter لم تكن موجودة، لذهب كل محتواها إلى منافساتها» (ص 167). نحن هنا، بطبيعة الحال، أمام

تعارضات لا تمت بصلة إلى معرفة الأشياء المتحدث عنها، أي أمام تعارضات لسانية صرفة.

لم ينظم المتمفصل اللساني رجل ذكي أو لجنة من الناس الأذكياء، مثلما هو الشأن بالنسبة للسيميائية الرياضية والإشارات الطرقية وحركات اللاترابيين وكثير من الوسائل التواصلية الأخرى.

وباختصار تتطابق الاختلافات التي نلاحظها في درجة تمفصل مختلف السيميائيات مع اختلافات في الظروف الاجتماعية التي تستعمل فيها هذه السيميائيات.

إن الروابط بين الجمهور والممثلين قليلة التنوع: وهي تنحصر في الاستحسان والاستهجان، مع بعض الفروق، ومن السهل في هذه الشروط اكتشاف سيمياءات مختلفة ليس بها أي تمفصل. وعلى النقيض التام من ذلك، فإن الخطاب يُستعمل في عدد كبير من الإرساليات المختلفة إلى درجة قد يكون معها مستحيلاً خلقُ الجمل المطلوبة إن كانت لا تتوفر هذه الجمل على أي عنصر مشترك، والمقصود أي تمفصل: لنتصور لغة لا تتوفر إلا على خمسة وثلاثين فونيمًا، ولا يمكنها أن تشكل إلا خمسًا وثلاثين جملة مختلفة. يسمح التمفصل، بمستوياته المتعددة التي ذكرنا هنا بعضها فقط، بتكوين كل الجمل المختلفة التي نرتضيها بواسطة خمسة وثلاثين فونيمًا. بين السيميائية غير المتمفصلة على وجه التقريب للجمهور في المسرح وسيميائية الخطاب المتمفصلة بعمق، تتموقع الوسائل التواصلية

الأخرى؛ أضف إلى ذلك أن القليل منها ينطوي على تمفصل شكلي محض مؤتلف مع تمفصل كامل. ومن النادر جدًا أن يكون هذا الأخير غير موجود، فالأعلام الوطنية ورنات الأجراس تقدم أمثلة عن ذلك، كما رأينا سابقًا.

4- وجهة النظر السوسيولوجية:

من اللائق أن نضيف ملاحظات سوسيولوجية أخرى إلى ما قلناه سابقًا. مبدئيًا، تكون كل سيميائية خاصة بفئة اجتماعية، اللاترابيين، الرياضيين، الكيميائيين، المناطقة، الجنود، المؤمنين، إلخ... وتستعمل بعض السيميائيات في اتجاه واحد؛ تتواصل السلطات القضائية مع مستعملي الطريق من خلال الإشارات الطرقية، لكن هؤلاء المستعملين لا يوظفونها، وتتوجه الإشارات الشاطئية إلى البحارة، لكن هؤلاء لا يستعملونها. والشيء نفسه صحيح بالنسبة للخرائط الجغرافية والخرائط الطرقية والعلامات التي نجدها في كتب الإرشاد السياحي ولافتات المحلات وعلامات الشركات، إلخ... الخطاب هو السيميائية الوحيدة التي لها طابع كوني، كل إنسان يتمتع بتكوين طبيعي، يعرف لغة واحدة على الأقل.

لكن الخطاب، مع ذلك، له حدوده. عندما يقصد المهندس مقاولاً ليبني له دارًا، فإنه لا يعطيه وصفًا لغويًا صرفًا لهذه الدار، قد يكون غير قادر على ذلك. عليه استعمال التصاميم. وعندما تبحث

الشرطة عن مجرم، فإنها تُعرِّف بأوصافه بواسطة الكلمات جزئيًا، وبواسطة الصور والبصمات اليدوية جزئيًا. والموسيقي الذي ينشر سوناتة حتى يتمكن الآخرون من عزفها، لا يفكر لحظة واحدة في تعويض الكتابة الموسيقية بوصف لغوي. والنحات الذي يود أن تُستنسخ تماثيله لن يعطي عنها وصفًا لغويًا إلى مَن هو مكلف باستنساخها.

لا أحد يعلم إن كانت هذه الحدود التي يُعرف بها الخطاب قابلة للتجاوز. أليس ممكنًا أن نقول كل شيء إن أضفنا الإجراءات المناسبة إلى اللغات؟ إذا افترضنا أن ذلك ممكن، من الأكيد أننا سنصطدم بالصعوبات التي نصادفها مع السيميائيات الأخرى: لقد تعلم المهندسون والمقاولون أن يؤولوا التصاميم، لكن الشخص الذي تُبنى من أجله الدار يشعر غالبًا بصعوبات عظيمة لفهم هذه التصاميم.

والرياضي الذي قضى سنوات في تعلم السنن الرياضي يفهمه رياضي آخر بسهلة، لكن المبتدئ لن يفهم أي شيء يذكر.

ولتجاوز حدود اللغات، يلزمنا خلق وتعليم عدة إجراءات لسانية إضافية، وإذا لم نقم بهذا فيما مضى، فربما لأننا وجدنا أن تبنِّي سيميائية أخرى يكون أسهل.

5- وجهة النظر التشريعية:

تخضع بعض السيميائيات لسلطة ما، بينما لا يخضع لها البعض الآخر. تُعرَف رنات السوق طبقًا لقانون صارم لا يسمح بأي استثناء، تعرف كل إرسالية معينة في بلد معين بالكيفية نفسها دائمًا: هذا القانون تضعه السلطات العسكرية. ويحكم البرلمان والقوانين الإشارات الطرقية التي هيأتها لجنة دولية لا تسمح إلا باختلافات طفيفة بين دولة وأخرى. وفي العصور الوسطى وُضعت سيميائية اللاترابيين من طرف راهب بَنْدكَتيّ (Benedictin) مجهول، ولم تتغير منذئذٍ، غير أن سلطات جماعة اللاترابيين المنحدرة عن البندكتيين أضافت إليها بعض العلامات؛ والتغييرات فيها قليلة جدًا من بلد لآخر. وينظم كهنة البلد رنات الأجراس.

تطورت سيميائية الرياضيين عبر القرون بواسطة اتفاقات ضمنية أو بقرارات اتخذت في المؤتمرات. والشيء نفسه صحيح فيما يخص سيميائية الكيميائيين والمناطقة حيث الاطراد كبير.

لا وجود للسلطة في اللغات، باستثناء ميادين معدودة، لقد فرض ليني في كل مكان مصطلحاته شبه اللاتينية للنبات، وتوجد مصطلحات مماثلة بالنسبة للحيوان ولوحدات القياس.

في هذه الميادين، يتحقق الاتفاق اللغوي، في جانب كبير منه، بسبب أننا متفقون على الظواهر التي نعينها. لكن المصطلحات ليست موحدة في اللسانيات؛ لأننا غير متفقين بما فيه الكفاية حول تلك الظواهر.

بعيدًا عن المجالات المحدودة الشبيهة بتلك التي ذكرناها الآن، فإن اللغة تُعطى للأفراد. أكيد أن هناك مجموعة من الأفراد ينظر إليهم الآخرون على أساس أنه يلزم الاقتداء بهم، لكن من المستحيل تحديد مَن هم ثم هناك دائمًا أفراد يبتعدون عما يسمى بالاستعمال. إما لأنهم لا يعرفون جيدًا هذا الاستعمال، وإما لأنهم يحرصون على مخالف المألوف.

عندما يستجيب ابتكار ما لحاجة جديدة، يتسارع كل واحد لتبنيه. غير أننا نتبنى الابتكارات كذلك لأنها تعجبنا.

تتميز اللغات إذًا عن السيميائيات الأخرى بدرجتها العالية من التقلب. يعود سبب ذلك إلى كون اللغة ملكًا مشاعًا لكل الناس، بينما تُستعمل السيميائيات الأخرى من طرف فئات اجتماعية محدودة حيث من الممكن سن القوانين.

الفصل الرابع

4

ائتلاف السيميائيات

رأينا أعلاه أن كل سيميائية لها حدودها، وينتج عن ذلك أننا عندما نريد تجاوز هذه الحدود، نلجأ إلى سيميائية أخرى. وليس نادرًا أن نؤلف بين سيميائيتين، فالتلميذ الذي يعالج مشكلة في الهندسة يستعمل صيغًا رياضية مقرونة بتعليق لغوي. وفي مصنَّف للمنطق، تتعاقب الجمل وعلامات سنن يعود أصله إلى بول؛ وغالبًا ما يتمم اللوحات الإشارية كتاباتٌ بلغة البلد. وفي مواقيت القطار، تستعمل الكلمات والأرقام وعدد من العلامات المتعلقة بسيميائية ثالثة. قد لا ننتهي من ذكر ائتلافات من هذا القبيل. بعضها بسيط للغاية: بواسطة اللغة يصف أستاذ الرياضة البدنية الحركة التي ينبغي تنفيذها ثم يصفر ليعين اللحظة التي يلزم فيها تنفيذ هذه الحركة.

في تأليفات من هذا النوع، من السهل أن نميز الأشكال المتعلقة بسيميائية ما وتلك المتعلقة بسيميائية أخرى. لكن توجد تأليفات أكثر حذقًا حيث تُمثِّل إحدى السيميائيات بواسطة شكل خاص. لقد رأينا أعلاه حالة المرأة التي تقول لزوجها، وهو يستعد للخروج «المطر يهطل». شكليًا، ليس هنا إلا سيمياء لسانية، لكن من البديهي أن للمرأة سببًا جعلها تتكلم هكذا: هي ترغب في أن ينتبه زوجها إلى المطر، كما أن زوجها سيأخذ ذلك بعين الاعتبار فيتناول معطفه أو مظلته، إلا في حالة ما إذا قرر البقاء في بيته. يوضح هذا الأمر أن تجربتنا مع السلوك الإنساني تسمح لنا بالتنبؤ بما لا يعبِّر عنه شكليًا؛ وعندما نعلم أن محاورنا فرد له التجربة نفسها، نستطيع أن نُفهمه ما نريد دون أن نعبِّر له عن ذلك.

في حالات من هذا النوع، من البديهي أن التمييز بين المؤشرات والتواصل الحقيقي يكون صعبًا. لتتأمل على وجه الخصوص المقطع التالي من كوميديا «التاج الورقي» لجان سارمون، حيث نشهد محادثة عادية، حسب ما يبدو، بين المسمى، الذي بقي في الفندق وصديقه الذي عاد وحده بعد أن خرج برفقة أصدقاء آخرين:

- باشولييه: ألم تنتظرهم.
- فيلييه: آه يا إلهي! لا.
- باشولييه: يعرفون الطريق.
- فيلييه: أحب أن أكون وحيدًا من حين لآخر.
- باشولييه: طبعًا.

من وجهة النظر اللسانية، فإن السؤال الأول غير ضروري مادام باشولييه لاحظ أن فيلييه دخل قبل الآخرين. لكن هذا السؤال طريقة متأدبة للتساؤل عن سبب عدم انتظار فيلييه للآخرين. لقد طرح باشولييه سؤالاً عديم الجدوى لأنه لم يجرؤ أن يطرح السؤال الذي فكر فيه بكيفية صريحة: ولم يجرؤ على ذلك لأن فيلييه يمر بأزمة عاطفية لا يريد الحديث عنها. فهم فيلييه جيدًا ما لم يعبَّر عنه، لكنه أجاب كما لو أنه لم يفهم أي شيء فأخذ السؤال بمعناه اللغوي وأجاب عنه «آه، يا إلهي. لا».

إذا نظرنا حرفيًا إلى هذا الجواب، فهو تافه مثل السؤال حيث عبر فيلييه بهذه الإجابة عن نفوره من الحديث عما يقض مضجعه. لكن ما يحرك باشولييه ليس الفضول، بل الرغبة في مساعدة

صديقه: لذلك قرر أن يستمر. لكن نظرًا إلى أنه لم يعد قادرًا على أن يسأل، ولو بكيفية غير مباشرة، فقد أعطى بنفسه إجابة عن سؤاله: «يعرفون الطريق». هذه الإجابة خاطئة بطبيعة الحال، لكنها وسيلة لاستدعاء التناقض والحصول بالتالي على إجابة حقيقية. وبالفعل يصحح فيلييه قائلاً: «أحب أن أكون وحيدًا من حين لآخر».

الحقيقة هي أنه يريد، في هذه المرة، أن يكون وحيدًا؛ لكنه تكلم بكيفية عامة، مما يعبر مرة أخرى عن نفوره من الحديث عن معاناته. غير أنه لمح بصورة مبهمة إلى ما يعتمل في داخله. ولكي يشجعه على السير في طريق الاعترافات، أجاب باشولييه: «طبعًا» مبينًا له مدى تعاطفه معه دون أن يفصح عنه.

تخفي هذه المحادثة كلها، بشكلها العادي، صراعًا دراميًا صرفًا؛ وهذه الدلالة التي لا شكل لها ممكنة لأن باشولييه وفيلييه يشتركان في تجربة معينة للدوافع البشرية، وبالخصوص في الدوافع التي تجعلنا نقول بعض الأشياء ونصمت عن الأخرى.

بالنسبة لباشولييه، من المؤكد أن كل شيء مقصود عن وعي: لكنه من الصعب أن نميز عند فيلييه ما هو تواصل عما هو مجرد مؤشر.

وبطريقة مشابهة يتم توجيه بعض الإهانات: لدى زيارة حاكم لمعرض يضم لوحات رسام لا يحبه، تحدث الأول مع الثاني في موضوع آخر. تكمن الإهانة هنا في غياب الثناء الذي يقتضيه التأدب في مناسبة مثل هاته.

وفي حياتنا اليومية تكثر الأمثلة من هذا القبيل. وقد عبر عن ذلك دولاكروا بقوله: «يفسر تشابهُ البنى وتماثل الشروط الوجودية وعادات الحياة المشتركة التقليد والتعاطف والامتثالية، مما يتيح التفاهم ويشكل ما يشبه لغة أولية»[1].

عندما قال دولاكروا بأن هذه اللغة أولية، من المحتمل أنه كان يفكر في أن هذه اللغة ليس لها شكل وأنها صعبة الإدراك؛ لأن هذه اللغة تكون في درجة عالية من الإتقان على ألسنة اللبقين أو في كتاباتهم. وتولي المدرسة السيميولوجية الجديدة لباريس أهمية كبرى إلى هذه اللغة الخفية التي تسميها إيحاء connotation متبعة في ذلك هيالمسليف.

يستفيد الأدب استفادة كبرى من الإيحاء. لنأخذ أولاً خرافات لافونتين. للخرافة دلالة لسانية تكمن في أنها تحكي حدثًا، وهذه القصة مخصصة طبعًا للإرشاد. هكذا تصلح خرافة الحيوانات المريضة بالطاعون لاستحضار العبرة التالية: «بحسب قوتك أو ضعفك سيكون حكم المحكمة أبيض أو أسود». إن إيحاء الحكاية هنا موضح من خلال المغزى. لكن الأمر ليس دائمًا هكذا، فمغزى قصة الزير والنملة يوحي به فقط.

كثير من الروايات هي قصص ذات إيحاء قد يخطئ فيه القارئ. لقد وصف كل من آندري جيد في «الباب الضيق» وإيبسن Ibsen في Brand شخصيات يمثل بالنسبة إليها نكران الذات الشكل

(1) Le langage et la pensée, Paris, Alcan, 2e éd. 1930, pp. 94-95.

الأعلى للأخلاق. ولم يكن قصد هذين المؤلفين تمجيد نكران الذات، لكن بعض القراء، أشياع نكران الذات استخلصوا ما يوحي بذلك من هذين العملين.

يستعمل الشعر أيضًا الإيحاء. في المناقشة التي اختلف فيها سنة 1925 و 1926 كل من هـ. بريمون و ب. سوديي في موضوع الشعر الخالص، ثم الاعتماد كثيرًا على بيت راسين الشعري بنت مينوس وبازيفايي (La fille de Minos et de Pasiphaé). وقد لاحظ سوديي عن صواب بأن اسمي مينوس وبازيفايي محملان بذكريات عجيبة تجعلنا نحلم. وقد تحدث كثير من الشعراء عن الأسد والحصان والنمر، لكن قلما تغنوا بالبقرة.

لكل مجموعة لغوية عادات مشتركة بالضرورة. ويخلق اشتراكهم في الحياة والثقافة اتفاقًا طبيعيًا بين الأفراد حول كيفية تقييم الأشياء التي تُعيِّنها الكلمات. هكذا تكون الكلمات محملة في نهاية المطاف بدلالة غير لغوية. ويكفي أن يستغل شاعر هذه الترابطات لتولد سيميائية مختلفة عن الخطاب ولكنها غير منفصلة عنه. وتُفهم هذه السيميائية فهمًا جيدًا من طرف أعضاء المجموعة. لكنها تستعصي على الأفراد الذين لا يعيشون في الوسط نفسه. ويوضح ذلك هذا المثال المبتذل، حيث تمجد أغاني الشراب، في الغرب الأوروبي، المشروبات الكحولية بينما تمجد الشاي في الصين. ويقدم البيت الشعري لراسين المذكور أعلاه مثالاً أسمى، فَمَنْ لا يعرف الميثولوجيا الإغريقية لن يجد فيه الروعة نفسها.

ومع أن الشعراء يبتعدون عما هو عرفي، فإنهم لا يستطيعون التخلص منه؛ وهذا ما يفسر الحركات الشعرية مثل الكلاسيكية والرومانسية. وتعطينا الكلمة الانجليزية - العندليب مثالاً بيِّنًا: لقد أدخل الشعراء الأمريكيون الأولون العندليب في أشعارهم، مع أن هذا الطائر لا يعيش في الولايات المتحدة، وقد عوّدهم الاستئناس بالشعراء الانجليز على الربط ما بين العندليب والليل. أما الشعراء الأوروبيون، فكانوا يخضعون أيضًا لعرف يتمثل في أن العندليب لا يغني في الليل فقط.

باختصار يُغني الإيحاء - الذي هو حالة خاصة من حالات التأليف بين السيميائيات - وسائل التواصل، لكنه يحرج السميولوجي الذي يريد دراسته لأنه يفتقر إلى شكل خاص به.

الفصل الخامس

5

العلامات

1- المدلول والدلالة:

تم تعريف العلامة سابقًا بأنها أصغر عنصر، على المستوى الشكلي والدلالي في آنٍ واحد، يمكنه أن يكون مشتركًا بين سيمياءين أو أن يميز بينهما. يتضمن هذا التعريف تعارضًا بين السيمياء والعلامة على مستوى الدلالة: للسيمياء وحدها دلالة بالمعنى الحقيقي للكلمة، وهي وحدها تشكل إرسالية. يُستعمل مصطلح «مدلول» لنصيب الدلالة الذي تضطلع به العلامة، ويعيّن مصطلح دال شكلها.

ستظهر أهمية التمييز بين الدلالة والمدلول فيما بعد، لكننا نستطيع منذ الآن ملاحظة بعض الأمور. تحتوي عدة لوحات إشارية للطريق على سهم، إنه علامة بلا ريب؛ لأن كل لوحة تتضمن هذا العنصر تكون لها علاقة باتجاه السير. لكن هـذا السهم

لا يمكنه وحده أن يكوّن إرسالية، يجب أن يكون له اتجاه معين ولون معين وموقع معين في لوحة ما؛ يلزم اجتماع كل هذه العناصر لتكوين الإرسالية. والشيء نفسه صحيح بالنسبة لكلمة مثل طاولة، إذ ينبغي أن تكون مؤتلفة مع كلمات أخرى وبتنغيم معين، ويمكن استعمال بعض الكلمات دون ائتلاف مع كلمات أخرى كما هو الحال في العبارتين، «الصمت!» «كم؟» لكنهما يأتلفان دائمًا حسب تنغيم معين.

كان سوسير يتصور العلامة بأنها «كيان نفسي ذو وجهين»[1] وقد وضّح، بواسطة رسم بياني مرفق بسهمين، بأن العلاقة بين الدال والمدلول، بالنسبة إليه، يمكن عكسها (Réversible). لكن، رأينا أن الدلالة ليست أمرًا معطى فلا نستطيع الوصول إليها إلا

(1) Cours. p. 101.

بواسطة افتراض ينطلق من شكل السيمياء. والشيء نفسه صحيح طبعًا بالنسبة للعلامة، لا يمكن الوصول إلى المدلول إلا انطلاقًا من الدال.

من جهة أخرى، ليس للمدلول في حد ذاته أي وحدة: يمكن التعبير عن الشطر الدلالي نفسه (tranche de signification) إما بواسطة دال وحيد مثل «وال» (préfet)، وإما بواسطة الائتلاف التالي: «مدير مدني لإقليم فرنسي» (administrateur civil d'un département français). لنا، في الحالة الأولى، مدلول واحد، وفي الحالة الثانية مجموعة من المدلولات. إن ما يحدد وحدة المدلول هو وحدة الدال. ينبغي إذًا النظر إلى العلامة بأنها ترابط ذو اتجاه وحيد، حيث إن الدال هو وسيلة الوصول إلى المدلول.

2- التصنيف الشكلي للعلامات:

ليس نادرًا أن تجتمع في سيميائية واحدة علامات متعددة الأنواع. تتم حركات الرهبان اللاترابيين والهنود الحمر بواسطة الأصابع والأيدي والأذرع والرؤوس. لكن قلما تكون لهذا فائدة؛ لأن هذه الاختلافات الشكلية لا تقابلها اختلافات تتعلق بأصناف المدلولات. لكن يوجد هذا التقابل في الإشارات الطرقية: تخصَّص أشكال اللوحات لمدلولات معينة وتخصص الألوان لمدلولات أخرى، ثم هناك الخطوط والأسهم والرسوم المشخصة لمستعملي الطرق إضافة، في الأخيرة، إلى اللوحات والأضواء والرسوم على

الأرض. وعند الكيميائيين، تمثِّل الحروفُ الذرات كما تمثل الأرقام الأعداد.

وفي الخطاب يعبر التنغيم عن بعض المدلولات كالإثبات والتساؤل، إلخ... وتعبر الكلمات أحيانًا عن الشيء نفسه، لكنها تصلح في الغالب للتعبير عما يشكل موضوع الإثبات والتساؤل، إلخ...

3- الطابع العرفي للعلامة:

يظهر الطابع العرفي للسيمياءات في كل درجات تراتبيتها الداخلية. إذا تفحصنا الخطاب مثلاً، وجب علينا أن نعطي طابعًا عرفيًا لتركيبه ومفرداته وتنغيمه وفونيماته. لكن الحديث عن العرف كان بخصوص الكلمات أساسًا، والعرف هنا معناه الاتفاق الضمني بين متكلمي مجموعة واحدة. وفي هذا الموضوع نجد سُنة تعود إلى أفلاطون.

يعارض أفلاطون في حواره كراتيل بين الأطروحتين اللتين كانتا تتصارعان في عصره؛ كان هرموجين يدافع عن الفكرة القائلة بأن الكلمات توحي بشيء ما بموجب العرف، وكان كراتيل يدافع عن الفكرة التي يتكون بها الشكل. وقد تناول هذه المسألة د. وايتني في القرن التاسع عشر. لكن سوسير المعجب كثيرًا بوايتني هو مَن أعاد إليها البريق، حيث إن كلمة مثل ثور boeuf اعتباطية عنده؛ لأنه لا شيء في شكلها يبرر ربطها بفكرة الحيوان، في حين أن كلمة

مثل coucou (طائر الوقواق) معللة – جزئيًا على الأقل – لأن شكلها يُذكر بصراخ الطائر المشار إليه[1].

نجد في الكتابة الصينية علامات يُذكر شكلها بشكل الشيء الذي تُعيّنه الكلمة المشار إليها. وينطبق هذا على علامة الكلمة التي تعيّن الطفل، حيث تستحضر الرأسَ الكبير للرضيع بعظامه التي لم تلتحم بعد ولا تومئ إلى الجسد إلا بواسطة الساقين. قد يصنف سوسير هذه العلامة ضمن العلامات المعللة. وإضافة إلى هذا نجد العلامات التي قد يصنفها ضمن ما هو اعتباطي مثل لاحقة ضمير الجمع men المتكونة من الفونيمات نفسها المكونة لكلمة men التي تعيِّن الباب، وتصوَّر هذه الكلمة الأخيرة في الكتابة بواسطة علامة تمثل الباب؛ واعتمادًا على التجانس اللفظي (homonymie) يستعمل الصينيون للاحقة ضمير الجمع علامة الباب مضيفين إليها علامة أخرى حتى يتحقق التمايز.

نجد هذا التعارض بين الاعتباطي والمعلل خارج المجال اللغوي، فليس لشكل اللوحات في الإشارات الطرقية أي شبه مع مدلولها، لكننا نجد على خلفية بيضاء رسم سيارة أو دراجة نارية أو دراجة هوائية. وللإشارة إلى مفهوم النهار، يضع اللاترابيون السبابة اليمنى على جذر السبابة اليسرى، لكنهم يقلدون شكل السقف بيدين متصلتين لتمثيل مفهوم الدار. وتشير الخريطة الطرقية إلى الصعود والنزول بواسطة السهم، لكنها تمثل أجزاء سطح الأرض

(1) Cours, p. 102.

بكيفية أمينة للغاية. وعندما نعبر عن عدم علمنا بشيء من خلال هز الكتفين نجهل سبب هذه الحركة التي اخترناها؛ لكن الحركة التي نقوم بها للمناداة على شخص ما تذكر بحركة الاقتراب.

يعلم الجميع أن العلامات التي يقال عنها بأنها معللة، لا تملك هذه الصفة إلا جزئيًا؛ فكلمة coucou لا تقلد الفاصل الموسيقي الموجود بيت جزئي صراخ الطائر وتستعمل مرتين الصامت / K/ الذي لا يوجد في الصراخ. والألم يجعل الفرنسي أو الألماني يطلق صرخة أي. وفي الكتابة الصينية، لا تستنسخ العلامةُ المشيرة إلى الطفل لا الجسد ولا الذراعين، أما الباقي فهو مَنَمنم (Stylisé) إلى درجة قلما يكون التشابه معها بديهيًا لأول نظرة. وتُمثَّل السيارة في الإشارات الطرقية داخل فضاء ذي بعدين. وأيدي اللاترابيين أبعد ما تكون عن تقليد دار ما لأنها لا تعين إلا السقف، وحتى هذا السقف غير ممثل تمثيلاً جيدًا. ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن الحركة التي نستعملها لنطلب من أحد ما الاقتراب.

إذًا، كل العلامات عرفية بمعنى أن الأفراد متفقون على استعمالها كما هي. من جهة أخرى، فإن لفظي «اعتباطي» و«معلل» لا يصفان بدقة الأمور التي نتحدث عنها. وكما اعترف بذلك سوسير[1]، فإن استعمال الدال «ثور» لا يخضع لهوى الفرد: فإذا استعمل دالاً غيره، لن يفهمه الآخرون؛ واستعمال الدال «ثور» معلل، حيث يتبناه العربي الناشئ لأن بيئته تستعمله. باختصار كل

(1) Cours, p. 104.

العلامات عرفية، والتعارض بين ما نسميه اعتباطيًا ومعللاً مرتبط بوجهة نظر أخرى.

فيما يخص حالة العلامات المسماة معللة، يكون للدال السمعي أو البصري طابع يذكر قليلاً أو كثيرًا بطابع المدلول. يمكننا القول إذًا بأن هذا الرابط بين الدال والمدلول ملازم لطبيعة الدال، أي أنه رابط داخلي.

إن اختيار مصطلح داخلي للعلامات المسماة معللة يقود طبعًا إلى اختيار مصطلح خارجي للعلامات المسماة اعتباطية.

عادة ما يكون الرابط هنا بين الدال والمدلول مجهولاً بالنسبة للمستعملين. ليس ثمة إلا المؤرخون الذين قد يستطيعون عند الاقتضاء الوصول إلى أصل هذا الربط. يمكننا بصورة تقريبية أن نعيد بناء الشكل الذي كان لكلمة boeuf في اللغة الهندوأوروبية البدائية، لكننا لا نفهم لماذا تم ربط هذا الدال بهذا المدلول. وفي حالات أخرى نكون محظوظين أكثر: نحن نعلم أن إيستمان كوَّن كلمته «كوداك» kodak وهو يفكر في شكلها المكتوب (orthographe) فأراد أن تكون هذه الكلمة سهلة القراءة في كل اللغات. كما نعلم أن اعتماد الأحمر للمنع في الإشارات الطرقية سببه ارتباط هذا اللون بالخطر في بعض البلدان، ونجهل سبب ذلك، ولهذا تم اختيار الألوان الأخرى لتتعارض فقط مع الأحمر ومع بعضها البعض.

لكن هذه الاعتبارات الأخيرة لها طابع تاريخي وليس لنا الحق في إدخالها ضمن نظرية تريد أن تكون سانكرونية. ينبغي أن نقتصر في هذه النظرية على الظواهر التي تؤدي دورًا في التواصل.

ومن وجهة النظر هاته يجب أن نتذكر طبعًا أن كل علامة اعتباطية، ولهذا السبب هناك مكان لوجهة النظر السانكرونية. إذا لم يعمل الأفراد على احترام العرف، لن يكون ثمة نسق تواصلي؛ سنجد أنفسنا أمام ظواهر لا تتكرر أبدًا. أمام ظواهر تاريخية. ومن بين العلامات (التي هي عرفية بدون استثناء)، نجد البعض الذي له علاقة داخلية بين الدال والمدلول؛ وهذه العلاقة تهم الباحث السانكروني باعتبار أنها تحدد الاستعمال: إذا كان بروسون قد كتب في يوم ما épidémie d'épilepsie (وباء الصرع) فلأنه لاحظ أن تتابع المصوتات يُذكر بحركات المصروع.

الفصل السادس

6

المعرفة والدلالة

1- التمييز بين المعرفة والدلالة:

تطرقنا عدة مرات خلال العرض السابق إلى هذا الجانب أو ذاك من التمييز بين الفكر والدلالة؛ وقد حان الوقت لتلخيص ذلك. يلزمنا الاحتياط من المدلول المرتبط بكلمة «فكر»، حيث نشير بذلك إلى التفكير والسلوك النفسي المتمثل في استعمالنا اللغة الأم بكيفية ذهنية: نتحدث إلى أنفسنا عندما نفكر وعندما نقوم بالعد. ويتعارض مع هذا الفكر الواعي فكر شبه واعٍ، نشاط نفسي لا يمكن إدراكه، لكن ينبغي افتراض وجوده لشرح بعض السلوكات التي يمكن ملاحظتها.

عندما نجد أنفسنا أمام مشكلة تظهر فجأة وتقتضي حلاً آنيًا، يحدث أن نتبنى حلاً دون أن يكون لنا الوقت للتفكير؛ ينبغي الافتراض بأن المبادرة أتت من موضع ما. ومن جهة ثانيـة، بإمكاننا

التفكير بواسطة مختلف الألسنة التي تعلمناها: من اللازم وجود ملكة تختار من بين سنائد هذا التفكير.

عادة ما نقول بأنه لكي نجيد الحديث بلغة أجنبية، ينبغي التفكير بهذه اللغة؛ والمقصود بذلك أنه عوض صياغة الفكرة بداية في لغتنا الأم لنترجمها بعد ذلك إلى اللغة الأخرى، ينبغي المرور مباشرة من الفكرة إلى الصياغة الأجنبية. إذًا، فالفكرة متميزة عن الصياغتين اللتين نختار من بينهما: الصياغة الأجنبية والمحلية؛ أما الملكة التي تجري الاختيار فلا يمكن أن تكون استدعاء ذهنيًا لصياغة لغوية.

إن الاستدعاء الذهني للغة ما ليست له أي فائدة بالنسبة للغوي، بما أنه لا يختلف جوهريًا عن التواصل الاجتماعي، غير أن الذي له أهميته عند المفكرين هو العلاقة بين الفكر اللاشعوري والتواصل سواء كان لغويًا أو غير لغوي.

لكي يستطيع الأفراد التواصل فيما بينهم بأية طريقة كانت، من اللازم وجود نقط مشتركة بينهم. ثمة اتفاق طبيعي ناتج عن أن الأفراد تكونوا بالطريقة نفسها؛ لكن ما يهم السميولوجي هو الاتفاق الذي يتحقق من أجل التواصل أو بواسطة: ينبغي توفر تجارب مشتركة تتعلق، في آن واحد، بالوسائل المستعملة وبالوضعية الاجتماعية التي تستعمل فيها هذه الوسائل. إن الدلالة ذات طابع نفسي، لكنها عرفية: تتحقق باكتشاف ما هو مشترك بين حالات وعي الأفراد الذين يتواصلون؛ إنها تقصي إمكانية إيصال ما هو خاص بفرد ما، فالأنا لا يمكن التعبير عنه و«لا أحد يفهم الآخر بالضبط»[1].

إن من نتائج هذا الطابع العرفي أن كل سيميائية غير كاملة، بما في ذلك الخطاب الذي نكمله في كل لحظة باللجوء إلى سيميائيات أخرى. لنتأمل الآن الطابع الخطي للخطاب، تتتابع الكلمات في الزمن ولا تسمح لنا أعضاء النطق بالتلفظ بأكثر من كلمة في آن واحد. لكن بعض السيميائيات الأخرى لها طابع آخر: فإشارات الطريق تُركب علاماتها في الفضاء؛ ولفهم لوحة ما، يمكن أن نبدأ على السواء بأية علامة. وتجمع القواعد الرياضية بين الروابط في الزمان والفضاء. لا يمكن إذًا الاعتقاد بأن خطية الخطاب تتضمن خطية الفكر.

من جهة أخرى، يتميز الخطاب بكون كل وحدة من وحداته ينتهي وجودها بمجرد ما ينتهي نطقها: تقصي الوحدات المتتالية

(1) Fr. Paulhan, La double function du langage. Paris, 1929, P. 11.

بعضها البعض بشكل متبادل. وعلى العكس من ذلك، قد يكون الفكر غير ممكن إذا أقصت كل فكرة سابقتها، ويكمن الفكر في ترابط أفكار متزامنة.

أخيرًا من المفيد ملاحظة أن سبب خطية الخطاب قد يرجع إلى أن فكر المستمع مضطر للعودة إلى الوراء لفهم ما يقال. لنفترض أن متكلمًا بدأ بالقول la police doit être prévenue وأن المستمع فهم أنه ينبغي إشعار الشركة، وبعد توقف قصير أضاف المتكلم car elle ma téléphoné. سينتبه المستمع إلى أنه أخطأ وعليه أن يعود إلى الجزء الأول ويفسره بأنه يعني: il est certain que la police est prévenue. يدل حدث مثل هذا على أنه حتى إذا افترضنا أن فكر المتكلم يتبع تسلسل الكلمات، فإن فكر المستمع يمكن أن يعمل بشكل مغاير.

غير أن الذي استرعى الانتباه على الخصوص هو تمفصل السيميائيات. هناك في البداية مسألة الصيغة: تكون كل سيمياء إثباتية أو استفهامية أو أمرية أو للتمني؛ لأن كل سيمياء هي وسيلة للتأثير في الآخر. عندما نستعمل لغتنا للتفكير، نستطيع أن نزعم، إذا اقتضى الأمر، بأننا نتوجه إلى محاوِر وهمي؛ نحن نستعمل الإجراءات اللغوية وهذه الأخيرة تتضمن الصيغة بالضرورة. لكن الفكر اللاشعوري أمر فردي منعتق من الأشكال اللغوية ولا نرى كيف يمكنه أن يتضمن الصيغة.

ومن جهة أخرى، هناك تمفصل الخطاب إلى كلمات، الذي يمكن مقارنته بتمفصل العلامات في السيميائيات الأخرى. وتصاغ

المشكلة بهذا الشكل: إذا كانت سيمياء ما مكونة من أربع علامات، أي إذا كانت دلالتها متكونة من أربعة مدلولات، فهل يجب بالضرورة الإقرار بأن حالة وعينا تتضمن كذلك أربع وحدات، أي أربع أفكار؟ ولتدقيق المشكلة، نقول: هل ستوجد هذه الأفكار الأربعة بصفتها وحدات متمايزة إذا لم يكن يطابقها أربع علامات في هذا السيمياء أو تلك؟

يتعرف الكلب على سيده ويميزه عن أجنبي، كما يتعرف على كلب آخر وعلى قط؛ ويتعرف كذلك على بيته أو حجرته. إذًا، لاشك أن له في ذهنه وحدات نفسية تطابق الوحدات التي تشكل موضوع معرفته. والحالة هذه أن ليس له علامات. وبالتالي، نستطيع أن نقر بأن لنا نحن أيضًا وحدات نفسية مستقلة عن العلامات نتجت عن معرفة الأشياء الفردية. إذ ذاك، فالمسألة التي تنتظر الحل هي معرفة ما إذا كان هناك توافق بين نسق الأفكار الذي تشكله المعرفة ونسق المدلولات الذي نجده في السيميائيات.

يبدو أن سيميائية الرياضيين متوافقة توافقًا كاملاً مع المعرفة وتعطينا تمثيلاً أمينًا للكميات وعلاقاتها. في رنة البوق يتطابق المقطع الأول مع الفيلق ويتطابق المقطع الثاني مع الكتيبة والثالث مع السَّرية والرابع مع الأمر. وفي علامات المرور، تمثل لمختلف الآليات المستعملة للطريق بالاعتماد على رسمها: السيارة والدراجة النارية والدراجة العادية والقاطرة. كما نشخص أيضًا حاجز السكة الحديدية. يتطابق كل هذا بالضبط مع وحدات معرفتنا. وقد تبنى العلماء المصطلحات النباتية والحيوانية والكيميائية والفيزيائية لأنهم

كانوا يريدون أن يكون في متناولهم تسميات تطابق بدقة الأشياء التي يدرسونها. وعندما يعلق بائع الخضرة ما يلي: «كرنب، 10 فرنكات» فإن كل كلمة تتطابق مع وحدة في فكرنا. وفي المدرسة يظهرون لنا أشياء كثيرة أو أجزاء فردية للأشياء حتى نتعلم أسماءها. هناك إذًا حالات كثيرة تتطابق فيها وحدة المدلول مع الطابع الفردي لعنصر معرفي.

لكن هناك حالات أخرى، فما يعبر عنه الرياضيون بـ 98 يعبر عنه في الفرنسية بـ quatre vingt dix huit حيث يقابل الرقمين أربعُ كلمات. نقول deux tiers مستعملين كلمتين، بينما يلجأ الرياضيون إلى ثلاث علامات هي الرقمان 2 و 3 يفصل بينهما خط. ويستعمل اللاترابيون أربع حركات ليقولوا «انتُخب البابا في السنة الماضية»، بينما تتطلب الفرنسية استعمال ثماني كلمات le pape a été élu l'an dernier. ونجد في إشارات الطريق لوحة مربعة زرقاء على يسارها سهم أحمر متجه نحو الأسفل وعلى يمينها سهم أبيض يتجه نحو الأعلى مما يكون ثمان علامات؛ لكن المرسوم الملكي الذي أدخل هذه العلامة إلى بلجيكا 1938 يقول بأن هذه الإشارة «تعطي أسبقية المرور للعربات التي تتجه نحو الإشارة المذكورة» مما يشكل ثلاث عشرة كلمة(*) في الفرنسية.

(*) تم تجاوز مصطلح الكلمة في اللسانيات المعاصرة لأنه لا يقدم وصفًا دقيقًا للوحدات اللغوية. وبغض النظر عن الاختلافات الناتجة عن المقاييس المستعملة لاعتبار وحدة لغوية كلمة، فإن استعمال هذا المصطلح هو بدون شك لغرض المقارنة بين الوحدات اللغوية والوحدات غير اللغوية (المترجم). أما نص الرسوم المذكور فهو: =

تدل الاختلافات التي نلاحظها بين سيميائيات مختلفة تصلح للتعبير عن الأفكار نفسها على أن تمفصل السيميائيات لا يمكن اعتباره ضامنًا لوجود تمفصل يطابق معرفتنا. يظهر التمفصل بأنه عرفي خاص بكل سيميائية.

نلاحظ بعض الاختلافات حتى داخل اللغة نفسها. نقول بالفرنسية il mangea une pomme (أكل تفاحة). نتعرف على وحدتين في كلمة mangea، الأولى تعبر عن فعل الأكل، والثانية تحدد الفعل في الزمن. لكن عندما نقول il mange une pomme (يأكل تفاحة)، من المستحيل أن نجزئ بهذه الكيفية كلمة mange التي تعبر هي الأخرى عن الفعل والزمن؛ وعندما نقول je soufflé dans mes mains (أنفخ في يديَّ)، نستعمل كلمتين متمايزتين هما je و souffle لعنصرين معرفيين، لكن في le vent souffle، فالذي يهب هو النسيم نفسه: نحن هنا إزاء أمر واحد يعبر عنه بثلاث كلمات.

يعلم كل فرنسي أن جملة il est notre voisin immédiat (هو جارنا القريب) ليست سوى طريقة ممكنة لوصف حدث معرفي، نستطيع أن نقول أيضًا il habite dans la maison qui touche à la nôtre (يسكن في الدار التي تحاذي دارنا): نحصي في الجملة الأولى خمس كلمات ونحصي في الثانية عشرًا.

= "accorde la priorité de passage aux véhicules se dirigeant vers le dit signal".

لو كانت كل كلمة في اللغة تطابق عنصرًا معرفيًا، لكان من السهل إعطاء مدلولها مثلما نفعل عندما نقول بأن «الوالي» (préfet) تعني «الحاكم المدني لمحافظة فرنسية». لكن من المستحيل أن نعمل هكذا في كثير من الكلمات، مثلاً في ال التعريف والفعل المساعد être. وإن تفحُص النفي لمفيد بوجه خاص. في جملة il ne travaille pas (لا يعمل) يعبر الفعل عن السلوك نفسه المعبر عنه في il travaille (يعمل)، ومع ذلك لا يوجد هذا السلوك في الفعل الأول: تثبت الفكرة وننفيها في آن واحد. لكن من النافع جدًا التوفر على أدوات التعريف والتنكير والنفي وعلى الأفعال المساعدة، حيث تساعد كل هذه العناصر على تكوين دلالة الجمل، وليس من اللازم أن تكون كاتبًا بارعًا حتى تستعملها استعمالاً مناسبًا. لكننا لا نرى كيف نعطي مدلولاً للنفي.

ليس نادرًا أن يتم التعبير عن وحدة معرفية بوحدتين لغويتين: فبينما نتوفر في الفرنسية على الأزواج chaud/froid، grand/petit، laid/beau ، (بارد/ ساخن، كبير/ صغير، جميل/ قبيح)، **ليس ثمة** أي شيء نعارضه بـ profond أو ivre (عميق أو ثَمل). **ينبغي ربط** هذه الصفات بالنفي (**il n'est pas ivre**, la rivière n'est pas profonde) (النهر غير عميق، هو غير ثمل)؛ **ومع ذلك فضد** profond أو ivre فرداني تمامًا مثل petit أو beau. **وفي الانجليزية،** لكلمة deep (عميق) ضد هو shallow و لـ drunk (ثَمل) ضد هو sober، لكن know ليس له ضد، في حين تعارض الفرنسية ignorer بـ savoir (جهل ≠ علم).

2- تأثير الدلالة في المعرفة:

منذ فون همبولدت، أكد كثير من اللسانيين الألمان بالخصوص أن اللغة تحدد فكرنا لأن رجلاً يتكلم بالألمانية لا يفكر مثل رجل يتكلم بالفرنسية. وسنستشهد بأحد المتأخرين هو فون وارتبورغ الذي يقول: «من الأرجح أن اللغة تهيمن على عقول الناشئة من خلال نوعية الفكر الذي تحتوي عليه مسبقًا. وفكر الإنسان مُنمذج بواسطة اللغة التي تكتسب سلطتها من خلال فكره. من المألوف أن نتحدث عن امتلاك الفرد ناصية اللغة، لكن اللغة هي التي تمتلك ناصيته في الحقيقة»[1].

إن كل ما تفرضه اللغة علينا هو التمفصل اللغوي وليس تمفصل فكرنا، عندما نكون صغارًا نسمعهم يقولون بأن الشمس تطلع، فنعتقد أن هذا يتطابق بدقة مع الواقع: نرى الشمس تصعد في السماء، لكن المدرسة تعلمنا بأن الأمر يتعلق هنا بحركة ظاهرية وبأن الأرض، في الحقيقة، هي التي تتحرك، نحوِّر فكرنا دون أن نحور جملتنا، فهذه الأخيرة لا تتحكم إذًا في الأولى.

لا يمكن لتمفصل لغة ما أن يحدد فكرنا إلا إذا لم نكن قادرين على معارضته بمعطيات المعرفة. هكذا يعتقد الطفل في البداية بأن الشمس تطلع. وفي اليوم الذي يتعلم فيه أن الأرض تدور، يظهر له تمفصل جملة «الشمس تطلع» في طابعة العرفي.

---

(1) Einführung in die problem und methoden der sprachwissenschaft. Halle, 1943. p. 185.

لو كانت اللغة تحدد فكرنا، لكنا نربط دائمًا الأفكار نفسها بالكلمات نفسها ولكانت التعددية الدلالية منعدمة. لنأخذ جملة «تغير لون وجهه» (تغيرت سحنته) يتعلق الأمر بوجه كان له لون في البداية ثم أصبح له لون آخر. لكن عندما نقول «يتغير لون أوراق اليانصيب بعد كل قرعة» لا يتعلق الأمر بالأوراق نفسها، حيث تستعمل أوراق أخرى. وليس أي عربي بغافل عن هذه التعددية الدلالية.

لنوسع أفقنا أكثر. قد يكون من المستحيل أن نتعلم لغة أخرى لو كان فكرنا حبيس قالب لغتنا الأم، كيف يمكن فهم he is likely to come إذا كان فكرنا مرتبطًا بـ «من المحتمل أنه سيأتي؟» وكيف يمكن الانتقال إلى السيميائيات غير اللغوية التي لها تمفصلات أكثر اختلافًا.

3- تأثير المعرفة في الدلالة:

يظهر تأثير فكرنا في كلامنا عندما ننتهي من تحرير رسالة أو عقد أو مقال، فنعيد قراءته ونغير منه لأننا نلاحظ أن الصياغة الأولى لا تعبر جيدًا عما نريد قوله.

عندما أدخل ليني لائحة اصطلاحاته النباتية، غيّر التسميات المستعملة؛ وقد فعل ذلك باسم معرفة أكثر دقة للظواهر. لكن ليس من الضروري أن يتدخل عقل عبقري مثل ليني حتى يتغير الاستعمال اللغوي. وإن تاريخ الجنس النحوي في الانجليزية خير مثال على ذلك. في الأصل كانت الانجليزية مثل الألمانية تتوفر على

ثلاثة أجناس وكان التعرف على جنس اسم ما يتم من خلال تصريفه وتطابق النعوت المرتبطة به. إضافة إلى ذلك كان الجنس يحدد اختيار ضمائر الشخص التي هي في يومنا هذا: he, she, it. وعندما زال التصريف، زال أساس جنس الأسماء وأصبح الاختيار ما بين he, she, it مؤسسًا على المعرفة: he للكائن الذكر و she للكائن الأنثى و it للكائن الذي لا يعرف جنسه أو ليس ذا أهمية ولكل ما ليس له جنس.

بطبيعة الحال، ينتظرنا عمل كبير حتى تكون اللغات متطابقة مع المعرفة ولا نعمل من أجل تحقيق هذا التطابق؛ لأننا واعون بالطابع المعرفي للغات؛ ولعل هذا الاصلاح يتطلب مجهودًا جبارًا مقابل فائدة هزيلة.

لقد بُذل هذا المجهود في ميادين محدودة، حيث هيأ الرياضيون شيئًا فشيئًا سيميائية خاصة. لأن اللغات كانت تزعجهم بأعرافها. ويتعب اللاترابيون في تعلم سيميائية حركة لأنهم يريدون أن يسود الصمت في ديرهم. وعندما كان من اللازم تنظيم سير السيارات بكيفية تجعل الأجانب يفهمونها، تم اختراع سيميائية ذات تنظيم مستقل عن تنظيم اللغات؛ فالفكر الإنساني يتحرر بسهولة من الأطر الخاصة باللغات عندما تدعو الضرورة لذلك.

الفصل السابع

7

الخصائص الأساسية للغات

في ختام هذه الملاحظات السيميولوجية، يلزم استخلاص ما تشترك فيه اللغات مع السيميائيات الأخرى وما يميزها عنها.

النقاط المشتركة هي ما يلي:

يتوجه الخطاب إلى إحدى الحواس الخمسة الخارجية، وهدفه التأثير في ذهن المخاطب الذي يفسر السلوك المدرك متذكرًا المقاصد المرتبطة به. وهذا الربط عرفي: فالأفراد متفقون على اعتبار السلوك المدرك وسيلة وعلى ربطه بمقصد خاص. ونظرًا إلى أن عدد الأعراف اللغوية محدود، فاللجوء إلى سيميائيات أخرى يكون لازمًا في بعض الإرساليات.

يحدث التواصل اللغوي بصورة تجريدية، إذ لا يُستخدم في التواصل إلا جزء من الشكل الملموس للوسيلة المستعملة، والدلالة

المتعلقة به ليست سوى جزء من حالة الوعي التي نريد إظهارها. الملموس يتعذر الإفصاح عنه والأنا لا يمكن التعبير عنها.

والآن، سنتفحص الاختلافات: ليس الخطاب هو السيميائية الصوتية الوحيدة: نستطيع التواصل بالغناء وبالتصفير أي بواسطة إجراء تنويع في العلو الموسيقي للصوت. لكن ليس بإمكان الغناء ولا أية سيميائية أخرى استعمال التغييرات التي تجريها الأعضاء المصوتة على الصوت الخارج من الحنجرة. هذا هو الاختلاف النوعي الوحيد، وبالنسبة للاختلافات الأخرى فالخطاب هو السيميائية الأقل محدودية من حيث وسائلها وهو الأكثر استعمالاً: كل إنسان يتكلم لغة واحدة على الأقل. كما أن تمفصله يبلغ درجة ليس لها نظير، فهناك سيميائيات أخرى لها تمفصل شكلي شبيه بتمفصل المونيمات إلى فونيمات لكن لا توجد سيميائية واحدة لها تمفصل شبيه بتمفصل الفونيمات إلى سمات.

لقد ولّد الخطاب عددًا كبيرًا من السيميائيات التعويضية والإيحاءات الغنية جدًا. لكن هذه الفضائل لها مساوئ: فمفردات المعجم كثيرة جدًا حتى يعرفها كل متكلم؛ كما نجد في اللغات عددًا كبيرًا من التنويعات الفردية ومن الفوضى، مما يشوش في غالب الأحيان على التواصل، لكن هذا يسمح لفناني الكلمة بالظهور.

إن الاختلاف بين تمفصل الدلالة وتمفصل المعرفة أكبر. وبما أن لكل لغة تمفصلها، فالترجمة من لغة إلى أخرى قلما تكون دقيقة.

وبعيدًا عما تشترك فيه اللغات مع كل السيميائيات الأخرى وما يميزها عنها، ينبغي أن نذكر ما هو مشترك بينها وبين بعض السيميائيات فقط: إمكانية أن يكون الفرد بالتناوب مرسل ومتلقي خطاب ما، التمفصل، الطابع الخطي للدال، استعمال دوال ذات قيمة داخلية وخارجية معًا. هذه، على الأقل، هي الخصائص الأساسية المتعلقة بهذا الجانب.

ثبت المصطلحات

Abbé	قس
Abstraction	تجريد
Acte	فعل
Activité	نشاط
Acousticien	عالم السمعيات
Alphabet	أبجدية
Aphasie	حبسة
Arbitraire	اعتباطي
Argumentation	حجاج
Articulatio	تمفصل

Assertion	إثبات
Auditif	سمعي
Avertissement	تنبيه
Baptême	تعميد
Barres	خطوط
Bataillon	كتيبة
Braille	براي
Catégoriel	مقولي، فئوي
Chiffre	رقم
Classicisme	كلاسيكية

Code	سَنن
Combinaison	ائتلاف، تأليف
Communication	تواصل
Compagnie	سَرية
Comportement	سلوك
Conceptualistes	تصوريون (ال)
Concret	محسوس
Connaissance	معرفة
Contact	اتصال
Conte	خرافة
Connotation	إيحاء
Convention	عُرف
Conventionnel	عرفي، اتفاقي
Cordes vocals	حبلان صوتيان
Couvent	دير
Croix	صليب
Décret	مرسوم
Déictique	إشاري

Déixis	إشارية
Description	وصف
Direct	مباشر
Discours	خطاب
Durée	مدة
Enseigne	لافتة تجارية
Epileptique	مصروع (ال)
Equation	معادلة
Equilatéral	متساوي الأضلاع
Etat de conscience	حالة الوعي
Etat de langue	حالة اللسان
Etiquette	بطاقة
Euclidien	إقليدي
Fait	فعل، حدث، ظاهرة
Flèche	سهم
Fonctionnel	وظيفي
Forme	شكل

Généralisation	تعميم
Génétique	تكويني
Geste	حركة
Garndeurs	كميات
Graphique	خطية، غرافية
Graphologue	غرافولوجي
Gustatif	ذوقي
Homonymie	تجانس لفظي
Hybride	هجين
Identique	متماهٍ
Impératif	صيغة الأمر
Indice	مؤشر
Indo-européen	هندوأوروبية (لغة)
Inhérent	ملازم
Insigne	شارة
Instabilité	تقلب
Intensité	شدة
Interdiction	منع

Interlocuteur	مُحاور
Interprétation	تأويل
Interrogation	استفهام
Intonation	تنغيم
Inventaire	جرد
Langage	لغة
Langue	لسان
Législatif	تشريعي
Lettre	حرف مكتوب
Lexical	معجمي
Linéarité	خطية
Littéral	حرفي
Logos	لوغوس
Longitudinal	طولي
Majuscule	حرف البدء
Marque de fabrique	علامة التصنيع
Mental	ذهني

Message	إرسالية
Métaphore	استعارة
Modalité	صيغة
Moi	أنا (ال)
Monème	مونيم
Morse	مورس
Motivé	معلل
Mythe	أسطورة
Nom propre	اسم علم
Nombre	عدد
Nomenclature	لائحة مصطلحات
Nominalistes	اسميون
Note (mus.)	نوتة
Notion	مفهوم
Numération	ترقيم
Obligation	إلزام
Occlusion	انسداد
Ogamique	أوغامية

Olfactif	شمي
Opposition	تعارض
Optatif	صيغة التمني
Orateur	خطيب
Ordre	أمر
Panneau	لوحة
Parole	كلام
Pellicule	سحاء
Périscope	مِئفاق
Perspective	منظور
Phonème	فونيم
Phonologie	فونولوجيا
Phonologue	عالم الصوتيات
Physiologie	فيزيولوجيا
Point de vue	وجهة النظر
Polysémie	تعددية دلالية
Polyvalence	تعددية وظيفية

Porte-plume	مقبض القلم
Procédé	إجراء
Processus	سيرورة
Pronominal (v.)	فعل مطاوعة
Rapport	رابط
Réalistes	واقعيون
Régiment	فيلق
Rétine	شبكية العين
Segmentaire	تقطيعي
Sème	سيمياء
Sémie	سيميائية
Sémiologie	سيميولوجيا
Sens	حاسة
Sens interdit	اتجاه ممنوع
Sifflement	صفير
Signal	إشارة
Signalisation routière	إشارات الطريق، علامات المرور
Signe	علامة

Signes de punctuation	علامات الترقيم
Signe graphique	علامة خطية
Signifiant	دال
Significantion	دلالة
Signifié	مدلول
Simultané	متزامن، متواقت
Social	اجتماعي
Sonneries de clairon	رنات البوق
Sonneries de cloche	رنات الجرس
Sourd-muet	أصم – أبكم
Sous-entendu (n)	تضمين
Structure	بنية
Stylisé	منمنم
Subconscient (adj.)	لاشعوري
Subsitutif	تعويضي
Suffixe	لاحقة
Syllabe	مقطع

Symbole	رمز
Synchronie	سانكرونية
Système	نسق
Tactile	لمسي
Télescope	مقراب
Tradition	سُنة
Trait	سمة
Trappiste	لاترابي
Uniformité	اطراد
Unité	وحدة
Visuel	بصري
Vocabulaire	مفردات
Voile du Palais	غشاء الحنك
Voyelle	مصوت

ثبت الأعلام

Barthes	بارت
Bergson	بيرغسون
Bloomfield	بلومفيلد
Boole	بول
Bréal	بريال
Brémond	بريمون
Brousson	بروسون
Cassirer	كاسيرر
Delacroix	دولاكروا
Eastman	إيستمان

Edison	إديسون
Gardiner	غاردينر
Gelb	جيلب
Gide	جيد
Goldstein	غولدشتاين
Harris	هاريس
Hegel	هيجل
Hermogène	هرموجين
Hjelmslev	هيالمسليف
Ibsen	إيبسن

Keller	كيلير
Kleinpaul	كلينبول
Lafontaine	لافونتين
Laporte	لابورت
Linné	ليني
Meillet	مايي
Mounin	مونان
Platon	أفلاطون
Racine	راسين
Sarment	سارمون
Saussure	سوسير
Serrus	سيريس
Troubetzkoy	تروبتسكوي
Verlaine	فرلين
Virgile	فرجيل
Wartburg	وارتبورغ
Whitney	وايتنى

الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة
تقديم الترجمة	5
المقدمة	19
الفصل الأول	
الفعل السيميائي	
1- تعريف	28
2- تسميات جديدة	37
3- المجال السيميائي	39
4- اللجوء إلى الدلالة	45
الفصل الثاني	
تعريف السيمياء	
1- التجريد	50
2- التمييز بين الفعل السيميائي والسيمياء	55
3- الكلام والخطاب واللسان	67

الموضـــــوع **الصفحة**

الفصل الثالث

تصنيف السيميائيات

1- وجهة النظر الحواسية 74
2- وجهة النظر الدلالية 77
3- وجهة النظر الاقتصادية 83
4- وجهة النظر السوسيولوجية 93
5- وجهة النظر التشريعية 94

الفصل الرابع

ائتلاف السيميائيات

الموضـــــوع **الصفحة**

الفصل الخامس

العلامات

1 - المدلول والدلالة 106
2- التصنيف الشكلي للعلامات 108
3 - الطابع العرفي للعلامة 109

الفصل السادس

المعرفة والدلالة

1 - التمييز بين المعرفة والدلالة 116
2- تأثير الدلالة في المعرفة 124
3 - تأثير المعرفة في الدلالة 125

الفصل السابع

الخصائص الأساسية للغات

ثبت المصطلحات 131
ثبت الأعلام 143

إيريك بويسنس

السيميولوجيا والتواصل

ترجمة وتقديم جواد بنيس

"لكي يستطيع الأفراد أن يتواصلوا فيما بينهم بأية طريقة كانت، من اللازم وجود نقط مشتركة بينهم. ثمة اتفاق طبيعي ناتج عن أن الأفراد تكونوا بالطريقة نفسها. لكن ما يهم السيميولوجي هو الاتفاق الذي يتحقق من أجل التواصل أو بواسطته: ينبغي توفر تجارب مشتركة تتعلق في آن واحد، بالوسائل المستعملة وبالوضعية الاجتماعية التي تستعمل فيها هذه الوسائل. إن الدلالة ذات طابع نفسي، لكنها عرفية تتحقق باكتشاف ما هو مشترك بين حالات وعي الأفراد الذين يتواصلون؛ إنها تقصي إمكانية إيصال ما هو خاص بفرد ما، فالأنا لا يمكن التعبير عنه، ولا أحد يفهم الآخر بالضبط.

إن نتائج هذا الطابع العرفي أن كل سيميائية غير كاملة، بما في ذلك الخطاب الذي نكمله في كل لحظة باللجوء إلى سيميائيات أخرى..".

الغلاف حسين جميل

رؤية

9 789774 992285